The Bridges of Madison County

Novel

Robert James Waller

جسور مقاطعة ماديسون

رواية

روبرت جيمس وولر

ترجمة:

صادق ناظم السباعي

جسور مقاطعة ماديسون – رواية

تأليف : روبرت جيمس وولر

ترجمة : صادق ناظم السباعي

طبعة إلكترونية ٢٠٢٢

صورة الغلاف :
مشهد من الفيلم المقتبَس عن الرواية

تنضيد ضوئي : المترجِم

نبذة عن الرواية :

[جُسور مقاطعة ماديسون] للكاتب (روبرت جيمس وولر)، رواية حققت أفضل المبيعات لعام ١٩٩٢، وهي تحكي قصة امرأة متزوجة إيطالية الأصل، تشعر بالوحدة في مقاطعة ماديسون بولاية أيَوا - مكان إقامتها. ترتبط بعلاقة حب مع مصوّر من مدينة بيلينغهام بولاية واشنطن – يعمل محرراً لصالح مجلة ناشيونال جيوغرافيك – وذلك في أثناء زيارته لمقاطعة ماديسون من أجل كتابة مقالة مصوَّرة حول الجسور المسقوفة في المنطقة. كُتبت الرواية على أنها تروي قصة حقيقية، لكنها في الحقيقة – كما قيل – خيالية بكاملها. مهما يكن، فقد ذكر مؤلفها في مقابلة معه، أن ثمة تشابهاً شديداً بينه وبين الشخصية الرئيسة في الرواية. إن هذه الرواية، واحدة من التي حققت أفضل المبيعات في القرن العشرين، وذلك بخمسين مليون نسخة بيعت في أرجاء العالم. وكانت الرواية قد نشرت للمرة الأولى في بريطانيا بعنوان [حب بالأسود والأبيض].

اقتبس الرواية كاتب السيناريو الأمريكي (ريتشارد لاغرافِنيس) عام ١٩٩٥ لتكون فيلماً، بالعنوان ذاته. أخرج الفيلم (كلينت إيستوود Clint Eastwood)، وقام بدور البطولة فيه مع الممثلة (ميريل ستريب Meryl Streep).

إنها علاقة حب دامت أربعة أيام، لم يتقابل الحبيبان بعدها أبداً، لكن روحيهما بقيتا متعانقتين حتى الموت.

البدايــة

ثمّة أغنيات تأتي من العشب أزرق العينين*، من تُربة ألف طريقٍ ريفيّ، وهذه واحدة منها. في أمسية خريفية من عام ١٩٨٩، فيما أنا جالس إلى مكتبي، أنظر إلى المشيرة تومض قُبالتي على شاشة حاسوبي، يرنّ هاتفي.

على الطرف الآخر من الخط مواطن من ولاية (أيَوا Iowa) يُدعى (مايكل جونسون Micheal Johnson)، يقيم حالياً في ولاية (فلوريدا Florida). صديق لي من (أيَوا) كان قد أرسل له كتاباً من كتبي. قرأه مايكل جونسون، كما قرأتْه أخته (كارولاين Carolyn)، وكلاهما لديه قصة يعتقدان أنها يمكن أن تثير اهتمامي، وهو حذِر، لا يريد أن يقول أي شيء عن القصة، عدا أنه وكارولاين على استعداد للسفر إلى (أيَوا) ليحدّثاني عنها.

رغم طبيعتي الشكّاكة في مثل هذه المحاولات، إلا أن استعدادهما للقيام بهذا الجهد يأسرني، فأوافق على لقائهما في الأسبوع التالي في مدينة (دي موِيْن Des Moines)**. تم التعارف في فندق (هوليداي إنْ Holiday Inn) قرب المطار، وراحت شكوكي تضمحل شيئاً فشيئاً، وهما جالسان قبالتي، فيما المساء يعمُّ في الخارج مصحوباً بنديف ثلج خفيف.

طلبا مني أن أقطع لهما وعداً: إنْ قرّرتُ ألّا أكتب القصة، علَيّ ألّا أكشف ما حدث في مقاطعة ماديسون بولاية أيَوا عام ١٩٦٥، أو أية تفاصيل ذات صلة تلت ذلك الحدث على مدى أربع وعشرين سنة. لا بأس، إنه طلب معقول. فالقصة تخصّهما، ولا تخصّني.

رُحت أستمع وأصغي بإمعان، وأسأل أسئلة صعبة، وراحا يتحدثان ويحكيان . كارولاين، بين حين وآخر، لا تستطيع أن تخفي بكاءها، أما مايكل فكان يغالب نفسه كي لا يبكي. أرياني وثائق وقصاصات من مجلة، ومجموعة من يوميات كتبتها والدتهما فرَنتشيسكا.

---

* نبات في أمريكا الشمالية ذو زهور زرقاء. (المترجم)

** عاصمة ولاية أيَوا. واسمها مقتبس من تسمية قديمة لنهر في فرنسا، ومعناه نهر النُسّاك. (المترجم)

خدم الغرف في رواح وغدو، وفناجين كبيرة من القهوة قد طُلبت. وفيما هما يتحدثان، راحت الصورة تتجلّى في مخيلتي، إذ على الصورة أن تتضح لتأتي بعدها الكلمات. ثم بدأت أسمع الكلمات، وبدأت أتخيلها مكتوبة على صفحات. في أحد الأيام، بعد منتصف الليل، أوافق على كتابة القصة، أو على الأقل، على المحاولة .

قرارهما في جعل هذه الأنباء منشورة للعلن، كان صعباً عليهما، فالتفاصيل حسّاسة، إذ إنها تتعلق بسمعة والدتهما، وهي أكثر تماساً مع سمعة والدهما. وقد قدّرا أن التقدم بالقصة يمكن أن يؤدي للقيل والقال على نحو مبالغ فيه، وإلى تسفيه فظ لأيّة ذكريات لدى الناس عن ريتشارد وفرَنتشيسكا جونسون.

ومع ذلك، في عالم يبدو فيه الالتزام الشخصي بكل أشكاله مرهِقاً، والحُبّ فيه قد أصبح مسألة ملاءَمة، فقد شعرا بأن هذه القصة الرائعة جديرة بأن تُروى. وقد اعتقدتُ حينها، وأعتقدُ الآن على نحو أقوى، أنهما كانا مصيبين في تقييمهما .

وخلال بحثي وكتابتي القصة، طلبت مقابلة مايكل وكارولاين ثلاث مرات. في كل مرة، ودونما أي تذمّر، أتياني مسافرَين إلى أيَوا. هكذا كانت لهفتهما، ليتأكدا من أن القصة كانت تُسرد على نحو دقيق. لقاؤنا لم يتعد الحديث أحياناً، وأحياناً كنا نجوب بالسيارة، وببطء، طرقات مقاطعة ماديسون، فيما كانا يشيران إلى أماكن لها دور هام في القصة .

إضافة إلى المساعدة التي قدمها كل من مايكل وكارولاين، فالقصة كما أرويها هنا مبنية أيضاً على معلومات ضمّتها يوميات فرَنتشيسكا جونسون، وبحثٍ كان قد أُجري في شمال غرب الولايات المتحدة، وتحديداً في مدينتَي (سِياتِل Seattle) و (بيلينغهام Bellingham) بولاية واشنطن، وبحثٍ جرى بهدوء في مقاطعة ماديسون بولاية (أيَوا)، ومعلوماتٍ جُمعت من المقالات المصورة لروبرت كينكايد، وعلى مساعدة قُدّمت من قِبل محرِّري مجلة، وتفصيلٍ زُوِّدتُ به من قبل صانعي أفلام وتجهيزات تصوير، وعلى مناقشة مطوّلة مع بعض أناس رائعين طاعنين في السِّن – مقيمين في مقاطعة (بارنزفيل Barnesville) بولاية (أوهايو Ohio) مسقط رأس روبرت كينكايد – تذكّروا أيام طفولته.

على الرغم من الجهد المبذول في التقصّي، تبقى ثمة ثغرات. لقد أضفتُ شيئاً من تخيُّلي إلى تلك الوقائع، لكن ذلك فقط حين كنت أتمكن من أن أستنبط رأياً معقولاً نابعاً من أُلفتي الحميمة مع فرَنتشيسكا جونسون وروبرت كينكايد، تلك الألفة التي

اكتسبتُها عبر بحثي. وأنا واثق من أني اقتربتُ جداً من حقيقة ما حدث .

ثمة ثغرة مهمة تتعلق بالتفاصيل الصحيحة لرحلة عبر شمالي الولايات المتحدة قام بها كينكايد . لقد علمنا أنه قام بتلك الرحلة، من عدد من الصور كانت قد نُشرت فيما بعد، ومن ذِكرٍ موجز لها في يوميات فرنتشيسكا جونسون، ومن خلال ما دوّنه هو بخط يده من ملاحظات تركها عند محرر لمجلة. بإفادتي من هذه المصادر دليلاً لي، فقد أعدت رسم الطريق الذي سلكه من مدينة بيلينغهام إلى مقاطعة ماديسون، كما أعتقد، في أغسطس عام ١٩٦٥. في نهاية أسفاري وأنا أقود سيارتي نحو مقاطعة ماديسون، انتابني شعور بأشكال عدة، بأني صرت روبرت كينكايد.

إن محاولتي للغوص في أعماق كينكايد، مازالت التحدي الأكبر في بحثي وكتابتي، فهو شخصية تبعث على الحيرة. في بعض الأحيان يبدو رجلاً عادياً إلى حد ما، وفي أحايين أخرى، يبدو بالغ الرقة، ولربما يبدو طَيفيّاً. كان محترفاً بارعاً في عمله. ومع ذلك، فقد رأى نفسه كنوع غريب من حيوان ذكر يعفو عليه الزمان في عالم ينحو نحو كثير من التنظيم. تحدّث مرة حول "نحيب الزمن" لا يني ينوح في رأسه بلا رحمة ، فكان من فرنتشيسكا جونسون أن رأته كما لو أنه يعيش " في أمكنة غريبة مسكونة منذ زمن مضى، مع سلالات تتوافق ومنطق العالِم (داروِن Darwin) ".

ثمة سؤالان آخران مثيران للاهتمام مازالا بلا جواب، الأول: نحن لم نكن قادرين على أن نقرر ما هو مصير ملفات كينكايد التصويرية، فبحسب طبيعة عمله يجب أن تكون هناك آلاف، وربما مئات الآلاف من الصور التي لم يتم العثور عليها. أغلب ظننا – وهو ما يتماشى مع الطريقة التي نظر بها إلى نفسه وإلى مكانته في هذا العالم – أنه قد أتلفها قبل موته .

أما السؤال الثاني فيتعلق بحياته منذ عام ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٢، فالمعلومات المتوفرة عن هذه المدة قليلة جداً. عرفنا أنه كان يتكسب رزقه الضئيل مصوِّراً في سياتل لعدة سنوات، وأنه استمر في تصوير منطقة (بيوجِت ساوند)*. عدا ذلك لا شيء لدينا.

* لسان بحري داخل في البر على طول الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة. (المترجم)

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي أن جميع الرسائل المرسلة إليه من قِبل إدارة الضمان الاجتماعي، وإدارة المحاربين القدماء، كانت تحمل عبارةً كُتبت بخط يده : " يُعاد إلى المرسِل "، وكانت قد أُعيدت .

إن تحضير وكتابة هذا الكتاب، قد عدّل نظرتي للحياة، وبدّل طريقة تفكيري، وأكثر من هذا وذاك، قد قلّص نظرتي الساخرة حول ما هو ممكن في ميدان العلاقات الإنسانية. من معرفتي بفرنتشيسكا جونسون وروبرت كينكايد خلال بحثي، أجد حدود علاقات كهذه يمكن أن تمتد أبعد مما ظننته سابقاً. وأنت تقرأ هذه القصة، ربما ستمُرّ بنفس ما مررتُ به.

لن يكون ذلك سهلاً. ففي عالم تزداد قسوته، كلنا نتواجد محصّنين بدروعنا الخاصة صَوناً لمشاعرنا. أنا لست متأكداً أين تضمحل عاطفتنا النبيلة، وأين تبدأ عاطفتنا الصبيانية. لكن ميلنا إلى الهزء من إمكانية ما سبق ذكره، وإلى تصنيف المشاعر الحقيقية العميقة على أنها ليست أكثر من كونها آنيّة جيّاشة، أمر يجعل الدخول صعباً إلى عالم الرقة المطلوبة لفهم قصة فرنتشيسكا جونسون وروبرت كينكايد. كان عليّ أن أتغلب على ذلك الميل أولاً، قبل أن أبدأ الكتابة.

على أية حال، إن أنت قاربت ما يلي مع استعدادك لتأجيل استنكارك، بحسب ما يرى (كولرِدج Coleridge)*، فأنا على ثقة من أنك ستكتشف ما اكتشفتُه. بل إنك ستجد في داخلك – كما وجدَتْ فرنتشيسكا جونسون – منفسَحا للرقص مجدداً .

صيف عام ١٩٩١

---

* شاعر وناقد ومفكر إنكليزي. (المترجم)

روبرت كينكايد

صباح الثامن من أغسطس عام ١٩٦٥، أقفل روبرت كينكايد باب شقته الصغيرة المكونة من غرفتين في المدخل الثالث من منزل للإقامة المؤقّتة، في مدينة بيلينغهام بولاية واشنطن. حمل حقيبة ظهْر ملأى بأجهزة تصوير، وحقيبة سفرية، ونزل درجات خشبية ومشى عبر مدخل خلفي إلى سيارته القديمة (بيك أب – تشِڤروليه Chevrolet) المركونة في مكان مخصص لسيارات سكان المبنى.

حقيبة ظهر أخرى، صندوق لحفظ الثلج متوسط الحجم، حامِلان بقوائم ثلاثية، علب كرتونية لسجائر بعلامة الجَمَل (كَمل Camel)، (ترموس Thermos)، وحقيبة ملأى بالفواكه، كلها كانت موجودة داخل السيارة مسبقاً. وفي صندوق السيارة كانت هناك حقيبة غيتار. رتّب كينكايد حقيبتيّ الظهر على المقعد ووضع الثلاجة والحامِلَين على الأرض. صعد إلى صندوق السيارة وحشر حقيبة الغيتار وحقيبة سفرية في الزاوية، وأحكم ربطهما بحبل غسيل مع عجلة السيارة الاحتياطية الموضوعة في جانب من الصندوق، وأقحم قطعة من قماش مشمع أسود تحت العجلة الاحتياطية المستعملة

جلس خلف مقود السيارة، أشعل سيجارة، وراح يراجع ذهنياً قائمة مستلزماته : مئتا بكرة فيلم منوّع، أغلبها (كوداك كروم) سرعة بطيئة، حاملان بقوائم ثلاثية، ثلاجة، ثلاث كاميرات وخمس عدسات، بنطالان أحدهما جينز وآخر كاكي، قمصان، صُدْرة للصور. حسناً. أيَّ شيء قد يكون نسيَه يمكن أن يشتريه في طريقه.

لبس كينكايد بنطال جينز بعلامة (لِفيزLevi's) باهتاً، حذاءً ميدانياً مستعملاً بعلامة (رِد وينغز Red Wings)، قميصاً كاكِيّاً، وحمالتَيّ بنطال بلون برتقالي. وعلى حزامه الجلدي العريض ثُبِتت سكين الجيش السويسري داخل غمدها*.

نظر إلى ساعته. إنها الثامنة وسبع عشرة دقيقة. دارت السيارة بالمحاولة الثانية، تراجع بها، عشّق السرعة وسار بتمهل نحو أسفل الزقاق تحت شمس باهتة. سار عبر شوارع بيلينغهام، متجهاً نحو الجنوب على طريق واشنطن ١١، سار أميالاً قليلة على طول ساحل (بيوجت ساوند)، ثم تبع الطريق العام المنحرف قليلاً نحو الشرق، وذلك قبيل أن يأخذ طريق الولايات المتحدة ٢٠ (U.S. Route 20) .

---

* سكين ذات نصلات متعددة المهام. (المترجم)

انعطف نحو الشمس، وبدأ مسيره الطويل الملتف عبر طريق الشلالات. لقد أحب هذه البلدة وشعر بالارتياح وهو يتوقف بين حين وآخر ليكتب ملاحظات حول احتمالات مثيرة للاهتمام للبعثات المستقبلية، أو ليصور على عجل ما سمّاه (لقطات تذكير). كانت الغاية من هذه اللقطات العجلى تذكيره بأماكن ربما يود زيارتها ثانية لمعاينتها باهتمام أكثر. في وقت متأخر بعد الظهر، عند مدينة (سپوكان Spokane)*، تحول شمالاً متخذاً طريق الولايات المتحدة ٢ الذي سيفضي به، عبر شمالي الولايات المتحدة، إلى منتصف طريق مدينة (دلوث Duluth) التابعة لولاية (مينيسوتا Minnesota) .

تمنّى للمرة الألف في حياته، لو كان لديه كلب، ربما يكون كلب صيد ذهبياً لرحلات كهذه، ويكون رفيقاً له في المنزل. لكنه كان في أغلب الأوقات وعلى نحو متكرر بعيداً وراء البحار، فلن يكون ذلك عدلاً للحيوان. على أية حال، ظل يفكر به. فخلال سنوات قليلة سيشيخ ولن يكون قادراً على العمل الميداني الصعب. ومن خلال نافذة سيارته، قال للخضرة الصنوبرية المتحركة " آنئذٍ.. ربما يكون لي كلب ".

أسفار كهذه كانت دائما تهيئ له مزاجاً لمراجعة حساباته، والكلب كان جزءاً منها. روبرت كينكايد كان وحيداً، إذ من الممكن أنه كان طفلاً وحيداً، مات والداه، وأقرباؤه البعيدون أضاعوا أثره كما أضاع هو أثرهم، وليس له أصدقاء مقرّبون .

لقد عرف اسم الرجل صاحب سوق الزاوية في بيلينغهام، واسم صاحب مخزن التصوير الذي كان يشتري أدواته من عنده. وكانت له علاقات شكلية تتعلق بعمله مع عدد من محرري المجلات. سوى ذلك، نادراً ما عرف أحداً، أو عرفه أحد على نحوٍ وطيد. فمصادقة الغجر صعبة للناس العاديين، وقد كان فيه شيء من طباع غجري.

فكّر بـ (ماريان Marian). لقد تركته منذ تسع سنوات، بعد زواج دام خمس سنوات. عمره الآن اثنان وخمسون عاماً، هذا يعني أنها الآن بعمر أقل من الأربعين. كانت تحلم بأن تصبح موسيقية، أو مغنية شعبية. لقد عرفت كل أغاني النسّاجين، وغنّتها بإتقان في مقاهي سياتل. حينما كان يعود إلى المنزل كان يوصلها إلى الحفلات ويجلس بين المستمعين فيما هي تغنّي .

---

* مدينة واقعة شرق واشنطن عند شلالات نهر سپوكان. (المترجم)

غياباته الطويلة التي كانت تدوم شهرين أو ثلاثة أحياناً، كانت تصعب على الزوجة. وكان هو يعلم بذلك. يوم قرّرا الزواج كانت على علم بطبيعة عمله، وكل منهما كان لديه إحساس ما بإمكانية التلاؤم مع صعوبة الأمر، لكنهما لم يفلحا. يوم عاد من مهمة تصوير قصة في آيسلندا، كانت زوجته قد غادرت تاركة ورقة قالت فيها " لم يفلح الأمر روبرت. لقد تركت لك (غيتار هارموني)*. ابق على اتصال " .

لا هو بقي على اتصال، ولا هي بقيت. لقد وقّع أوراق الطلاق عندما وصلته بعد مضي عام، واستقل طائرة إلى أوستراليا في اليوم التالي. لم تطلب الزوجة شيئاً سوى حريتها .

توقف في مدينة (كَليسبل Kalispell) بولاية (مونتانا Montana)، في وقت متأخر، ليمضي ليلته فيها. فندق (كوزي إنْ Cozy Inn) بدا له غير مُكلِف، ولم يكن مكلِفاً بالفعل. حمل ملابسه إلى غرفة تحوي مصباحيّ طاولة، لمبةُ أحدهما محروقة. مستلقياً على السرير، راح يقرأ حول الهضاب الخضراء في أفريقيا، ويشرب البيرة، وهو يشتم رائحة مصانع الورق في (كَليسبل). عند الصباح، هرول لمدة أربعين دقيقة، وقام بتمرين الضغط خمسين مرة، واستخدم كاميرته خفيفة الوزن لاستكمال عمله المعتاد.

قاد سيارته عبر أعالي ولاية (مونتانا) نحو شمالي ولاية (داكوتا) التي وجدها بسهولها تضاهي الجبال والبحر سحراً. كان فيها نوع من جمال يتّسم بالبساطة، فتوقف عدة مرات، نصَب حاملاً، وصوّر بالأبيض والأسود بعض مبانٍ زراعية قديمة، فالمنظر الطبيعي راق له، وهو الميال للاعتدال. لقد شعر بالحزن إزاء أراضي الهنود الحمر، وذلك لجميع الأسباب التي يعرفها كل فرد وينكرها. وتلك الأنواع من المستوطنات لم تبدوا له أفضل في شمال غرب واشنطن، أو في أي مكان آخر رآها فيه.

في صبيحة يوم ١٤ أغسطس، بعد مسير ساعتين من مدينة (دلوث) شق طريقه نحو شمال شرق، واتخذ طريقاً خلفياً صعوداً نحو مدينة (هيبينغ Hibbing)، ومناجم الحديد. كان الغبار الأحمر منتشراً في الجو، وثمة آلات وقطارات مصمَّمة خِصّيصاً لسحب المعدن الخام إلى سفن الشحن الراسية في مرفأين على بحيرة (سوپيريور Superior). أمضى فترة ما بعد الظهر ناظراً إلى ما يحيط بمدينة (هيبينغ) فلم يعجب

---

* هارموني Harmony : اسم لأكبر شركة كانت تنتج آلات عزف وتريّة. أُسِّست عام ١٨٩٢ في الولايات الأمريكية المتحدة . (المترجم)

بها وإن كانت الموطن الأصلي للمغنّي (بوب زيمرمان ديلان Bob Zimmerman Dylan) .

الأغنية الوحيدة التي اهتم بها من بين أغاني المغنّي (ديلان) هي " فتاة من الموطن الشمالي"، وهو يستطيع عزفها وغناءها. راح يدندن كلماتها لنفسه تاركاً خلفه المكان ذا الثقوب الحمراء الضخمة في الأرض. كانت (ماريان) قد أطلعته على بعض الأوتار وعلى كيفية توقيع النغمات الأساسية عليها، لترافقه في غنائه. قال مرة " هي تركتني أكثر مما تركتُها " قالها لملّاح قارب نهري ثمل، في مكان يقع في حوض الأمازون، يدعى حانة (ماك إلرويزMcElroy’s Bar). وما قاله كان صحيحاً .

إن غابة (سوپيريور) الوطنية كانت جميلة حقاً. إنها بلدة الرحّالة. عندما كان شاباً، تمنى لو أن أيام الرحّالة القدماء لم تنته، ليكون واحداً منهم. قاد سيارته على جانب المروج. رأى ثلاثة من غزال الموظ (moose)، وثعلباً أحمرَ، وكثيراً من الغزلان. توقف عند بركة والتقط بعض صور لانعكاسات غصن شجرة غريب الشكل على مائها، ثم جلس على حافة الصعود الجانبية لسيارته يشرب قهوته، ويدخن سيجارة (كمل Camel)، مستمعاً لصوت الريح تتخلل أشجار البتولا .

"سيكون من الجيد أن يكون معك شخص ما، امرأة "، حدّث نفسه وهو يشاهد دخان سيجارته ينتشر فوق البركة. " إن التقدم بالسن يجعلك تفكّر على ذلك النحو ". لكن كثرة غيابه، سيكون قاسياً على المتروكة في البيت. فقد سبق له أن خبِر ذلك .

حينما كان في موطنه (بيلينغهام)، كان أحياناً يواعد المخرجة المبدعة لوكالة الإعلانات في (سياتل). كان قد قابلها أول مرة فيما هي تقوم بعمل تابع لإحدى الشركات. كانت في الثانية والأربعين من عمرها، وضّاءة، وذات شخصية دمثة، لكنه لم يحبها، ولن يحبها.

كل منهما كان يشعر أحيانا بشيء من الوحدة، فيُمضِيان الأمسية معاً، يذهبان إلى السينما، يحتسيان قليلاً من البيرة، وبعد ذلك، يمارسان الحب على نحو لائق جداً. كانت على وشك الزواج لمرتين، عملت نادلة في عدة حانات أيام كانت تَدرُس في الجامعة. كلما انتهيا من ممارسة الحب، كانت لا تَني- وهما مستلقيان معاً - تصرّح له " أنت الأفضل روبرت، ليس لك منافس، ولا يمكن لأحد أن يكون " .

افترض سماع ذلك شيئاً مستساغاً لرجل، لكنه لم يكن خبيراً إلى حد يمكّنه، على أية حال، من معرفة ما إذا كانت تقول الحقيقة. لكنها مرة قالت شيئاً بقي ملازماً له :

" روبرت، هناك في داخلك مخلوق لستُ مؤهلة بما يكفي لأتمكن من إخراجه، وليست لدي القوة الكافية لأصل إليه. ينتابني شعور أحياناً بأنك موجود في الحياة منذ مدة طويلة، ولأكثر من حياة واحدة، وأنك سكنت ومازلت تسكن في أمكنة خاصة، لا أحد منا نحن البقيّة، قد حلم بها. إنك تخيفني، ومع هذا أنت رفيق معي. لو لم أجاهد لأضبط نفسي معك، لشعرتُ كما لو أنه من الممكن أن أخرج من عالمي ولا أعود إليه أبداً " .

لقد علم، على نحو غير واضح، ما كانت تتحدث عنه، إلا أنه لم يتمكن أن يحدّده. لقد خطرت له هذه الأنواع من الأفكار مع شعور حزين بالمأساوية الممزوجة بالقوة البدنية والفكرية الشديدة، حتى إنه تصور نفسه صبياً صغيراً ينمو في بلدة صغيرة بولاية (أوهايو Ohio)، حينما كان أولاد آخرون يُغنّون " جَدّف... جَدّف... جدّف قاربك "، بينما كان هو يتعلم اللحن والكلمات الإنكليزية لأغنية في ملهى فرنسي.

أحب الكلمات والصور. كلمة أزرق أو حزين (بلُو Blue) كانت إحدى كلماته المفضلة. لقد أحب الإحساس الذي تولّده على شفتيه ولسانه عندما ينطق بها. حينما فكّر في شبابه، تذكّر أن الكلمات تعطي إحساساً مادياً، ليس معنوياً فقط. وأحب كلمات أخرى مثل: بَعيد (ديستنت distant)، دخان الخشب (وودسموك woodsmoke)، طريق عام (هاي ويي highway)، مَمَر (پاسِج passage)، رحّالة (ڤويجر voyageur)، الهِند (إنديا India)، وذلك لأصوات لفظها، وكيفية تذَوُّقِها، ولِما تستحضره في الفكر. لقد احتفظ بقوائم من الكلمات التي أحبها معلّقة في غرفته.

ثم دمج الكلمات في جمل وعلّقها أيضاً :

قريب جداً من النار.

أتيتُ من الشرق مع فرقة صغيرة من المسافرين.

التغريد المستمر لأولئك الذين سينقذونني وأولئك الذين سيبيعونني.

أيتها التعويذة، أيتها التعويذة، أريني أسرارك.

يا مُوَجِّه الدفّة، يا مُوجِّه الدفّة، أرجعني إلى موطني.

يستلقي عرياناً حيث الحيتان الزُرقُ تسبح.

تَمَنّت له قطارات بخارية قد غادرت من محطات شتائية.

قبل أن أكون رجلاً، منذ زمن بعيد، كنت سهماً.

ثم كانت هناك أماكن أَحَبَّ أسماءها :
التيار الصومالي (سومالي كَرنت Somali Current)، جبال (بيغ هاتشِت Big Hatchet)، مضيق (مَلاكا Malacca)، ولائحة طويلة لأسماء أماكن أخرى. ومع مرور الأيام كانت الصفحات الورقية التي تضم الكلمات والعبارات والأماكن تغطي جدران غرفته .

حتى والدته كانت قد لاحظت شيئاً مختلفاً في ابنها. فهو لم ينطق بكلمة إلى أن صار عمره ثلاث سنوات، بعدها راح يحكي جملا كاملة، واستطاع القراءة على نحو حسن جداً حين بلغ الخامسة. أما في المدرسة فقد كان طالباً غير مبال، مُحبِطاً مُعلّميه.

ألقوا نظرة إلى درجات اختبار ذكائه، وتحدثوا إليه من أجل أن يقوم بإنجاز ما، أو أن يفعل ما هو قادر عليه، فبذلك يستطيع أن يكون ما يريد أن يكونه. أحد أساتذته في المدرسة الثانوية كتب في تقييمه له: إن الطالب كينكايد يعتقد " أن عملية اختبارات الذكاء (آي كيو IQ) هي طريقة ضعيفة لتقييم كفاءات الناس، فهي لا تأخذ في الحسبان عامل السحر الذي له أهميته الخاصة في حد ذاته، فضلاً عن كونه متمّماً للمنطق ". أنا أقترح الاجتماع بوالديه.

اجتمعت أُمُّه مع عدد من المعلمين، وحين أخبروها عن سلوك روبرت شديد التمرد مقارنة بقدراته، قالت: " إن روبرت يعيش في عالم خاص أوجده لنفسه، فأنا أعرفه، هو ابني، لكن أحياناً أشعر وكأنه لم يأت من والده ومني، بل من مكان آخر يحاول الرجوع إليه. أنا أقدّر اهتمامكم به، وسأحاول مرة أخرى تشجيعه ليحسّن من وضعه في المدرسة ".

لكنه كان يرغب في قراءة جميع كتب المغامرة والأسفار في المكتبة المحلية، وسعى عدا ذلك، لأن يثابر على قضاء أيام يسير خلالها على ضفة النهر الجاري بمحاذاة البلدة، متجاهلاً حفلات الرقص ومباريات كرة القدم، وأشياء أخرى تبعث فيه الملل. كان يصطاد السمك ويسبح ويمشي، ويستلقي على العشب الطويل مستمعاً لأصوات يتخيلها آتية من بعيد لا يسمعها سواه. اعتاد أن يقول لنفسه " هناك سَحَرة ". " إن كنتَ هادئاً ومُهيَّئاً لسماعهم، فإنهم هناك ". ولقد تمنى لو كان لديه كلب ليشاركه هذه اللحظات.

لم يكن المال اللازم للجامعة متوفراً، ولم يكن راغباً بها. والده كان قد عمل بجد وكان طيباً مع أمه ومعه، لكن عمل روبرت بمصنع الصمّامات لم يترك له مجالاً كافيا للقيام بأشياء أخرى، ومنها العناية بكلب. كان في الثامنة عشرة حينما مات والده، لذا، ومع حالة الكساد الاقتصادي التي كان من الصعب تحمّلها، قد جَنّد نفسه في الجيش ليعيل نفسه وأمه. وبقي هناك أربع سنوات، وهذه السنوات الأربع قد غيرت حياته .

بحسب الطريقة الغامضة التي تعمل بها العقول العسكرية، فقد أُسنِد إليه عمل مساعد مصوّر على الرغم من عدم معرفته حتى بكيفية تلقيم الكاميرا. لكن مع قيامه بذلك العمل قد اكتشف حرفته، فالتفاصيل التقنية لم تصعب عليه. وخلال شهر لم يكن يقوم بعمل مصورَين اثنين في تحميض وتظهير الصور فحسب، بل قد سُمح له أيضاً بالتقاط صور مشاريع بسيطة بنفسه.

أحد المصورين، يُدعى (جِم بيترسون Jim Peterson)، أحبه وأمضى معه وقتاً إضافياً يعلّمه دِقة التصوير الفوتوغرافي. وراح روبرت كينكايد يطّلع على كتب التصوير وكتب الفن ويقوم بدراستها، مستعيراً إيّاها من مكتبة بلدة (فورت مونماوس Fort Monmous). وخلال مدة وجيزة أعجب على نحو خاص بالرسامين الانطباعيين الفرنسيين، وبتوزيع الضوء في لوحات الرسام (رامبرانت Rembrandt).

وأخيراً، رأى أن ما صوره هو الضوء بدلاً من الأشياء. فالأشياء كانت مجرد وسيلة لانعكاس الضوء. إن كان الضوء جيداً، يمكنك دائماً أن تجد شيئاً ما لتقوم بتصويره. الكاميرا ٣٥ مليمتر كانت في بداية رواجها، فاشترى واحدة مستعملة من نوع (ليكا Leica) من مخزن محلّي لبيع الكاميرات. أخذها معه إلى مدينة (كايب ماي Cape May) بولاية (نيو جيرسيNew Jersey)، وأمضى أسبوعاً من إجازته هناك يصور المشاهد على طول الساحل .

في وقت آخر، استقل حافلة مسافراً إلى ولاية (ماين Maine)، وراح بواسطة سيارة عابرة إلى الساحل. استقل فجراً من مدينة (ستونينغتون Stonington) قارب البريد الآتي من جزيرة (آيلوهو Isle au Haut) وخيّم هناك، ثم استقل مركباً عبر (خليج فَندي Bay of Fundy) نحو مقاطعة (نوفا سكوشيا Nova Scotia). راح يحتفظ بملاحظات عن إعدادات كاميرته، والأماكن التي أراد أن يزورها مرة أخرى. عندما غادر الجيش وهو في الثانية والعشرين، كان قد أصبح مصوراً بارعاً جداً، فوجد عمل مساعد لمصور أزياء شهير في مدينة (نيو يورك New York) .

عارضات الأزياء كُنّ جميلات، وقد واعد بعضاً منهن، حتى وقع، إلى حد ما، في حب إحداهن قبل أن تنتقل إلى مدينة باريس، فانفصلا عن بعضهما. كانت قد قالت له " روبرت، أنا لا أعلم مَن أنت على نحو أكيد، لكن أرجوك تعال زرني في باريس ". قال لها سأفعل، وكان صادقاً حين قالها، لكنه لم يسافر إلى هناك. بعد سنوات فيما كان يعمل في تصوير قصة على شواطئ إقليم (نورماندي Normandy) في فرنسا، وجد اسمها في كتاب باريس (Paris book)، اتصل بها، واحتسيا القهوة في مقهى على الرصيف. كانت متزوجة من مخرج سينمائي ولها ثلاثة أولاد .

لم يستطع أن يكون متحمساً لفكرة الأزياء. فالناس استغنوا عن الملابس الفاخرة، أو عجّلوا في ارتداء أزياء وفقاً لتعليمات مصمِّمي أزياء أوربيين مُستبِدّين. لقد بدا له ذلك غباءً، وشعر أن تصوير الأزياء يقلل من شأنه. وعندما ترك هذا العمل، حدّث نفسه : " إنتاجك هو هويتك " .

في السنة الثانية من تواجده في نيو يورك تُوُفيّت أُمّه. فعاد إلى أوهايو، دفنها هناك، وجلس قُبالة محامٍ ليستمع إلى قراءة الوصية. لم يكن هناك الكثير، ولم يتوقع أن يكون هناك أي شيء. لكنه تفاجأ حين علم بأن والديه قد جمعا قليلاً من الأسهم في المنزل الصغير بشارع (فرانكلين Franklin) حيث أمضيا حياتهما الزوجية. باع المنزل واشترى بالمبلغ أجهزة من الطراز الأول. فيما كان يدفع قيمة الأجهزة لبائع الكاميرات، فكر بالسنوات التي عمل خلالها والده لجمع تلك الدولارات، وبالحياة البسيطة التي عاشها والداه.

بعض أعماله أخذت بالظهور ضمن مجلات صغيرة. فاتصلت به مجلة (ناشيونال جيوغرافيك National Geografic) إذ إنهم رأوا صورة لتقويم سنويّ كان قد التقطها في (كايب ماي Cape May). تحدث معهم، وأُوكِل بمهمة ثانوية، أنجزها بحِرَفية، وكان أن شق طريقه .

طلب الجيش منه العودة إليه عام ١٩٤٣ ، فذهب مع جنود البحرية وخاض طريقه نحو شواطئ جنوب المحيط الهادئ، الكاميرات تتأرجح من على كتفيه، يستلقي على ظهره يصور الجنود خارجين من مركبة إنزال برمائية. رأى الرعب مرتسماً على وجوههم، كما شعر به هو أيضاً. رآهم يُقطعون إلى نصفين بواسطة نيران الرشاشات، رآهم يتوسلون إلى الله، ويناجون أمهاتهم طلباً للمساعدة. لقد عانى كل ذلك، ونجا، ولم يدمن على تصوير ما يدعى بأمجاد وقصص الحرب البطولية .

خارجاً من الخدمة العسكرية عام ١٩٤٥، اتصل هاتفياً بمجلة ناشيونال جيوغرافيك، فأبدوا استعدادهم للعمل معه في أي وقت يشاء. ابتاع دراجة نارية في مدينة سان فرانسيسكو، انطلق بها إلى جنوب منطقة (بيغ سور Big Sur)*، وضاجع على الشاطئ عازفة آلة (تشيلو Cello) من مدينة (كارمِل Carmel)**، وعاد شمالاً ليستطلع مدينة واشنطن، أَحبَّ المدينة وقرر أن يجعلها قاعدته.

الآن، وهو في الثانية والخمسين، كان مايزال يراقب الضوء. لقد سافر إلى أغلب الأماكن التي كانت صورها معلقة على جدران غرفة طفولته، وتعجّب أنه قد تمكن فعلا من زيارتها، جالساً في حانة (رافلز Raffles Bar)، راكباً نهر الأمازون على متن زورق يُصدر أزيزاً، ومهتزاً على ظهر جمل عبر صحراء راجَستان*** .

إن شاطئ بحيرة (سوپيريور Superior) بدا له أجمل مما كان قد سمع عنه. لقد وضع علامة على عدة مواقع للرجوع إليها مستقبلاً، والتقط بعض الصور لتنبه ذاكرته فيما بعد، واتجه جنوباً على طول نهر مِسيسِبّي نحو ولاية أيَوا. لم يَزُر أيَوا يوماً، لكنه كان مأخوذاً بهضابها المتواجدة في قسمها الشمالي الشرقي على طول النهر الكبير. متوقفاً في بلدة (كلايتون Clayton) الصغيرة، أقام في فندق صغير يملكه صياد سمك، وأمضى صباحين يصور خلالهما زوارق السَحْب، وعلى متن زوق للقَطْر، أمضى فترة بعد الظهر تلبية لدعوة قائد الزورق الذي التقاه في حانة محلّية.

قاطعاً طريق الولايات المتحدة ٦٥ ، في وقت مبكر صباح يوم الاثنين ١٦ أغسطس ١٩٦٥، ذهب عبر مدينة (دي موين)، وتحول نحو الغرب عند ولاية أيَوا ٩٢، قاصداً مقاطعة ماديسون والجسور المسقوفة التي من المفترض أن تكون موجودة هناك بحسب المعلومات التي زودته بها إدارة مجلة ناشيونال جيوغرافيك. وقد كانت هناك تماماً كما قال له الرجل في محطة (تكسَكو Texaco) لبيع النفط، ودلّه على اتجاهات غير دقيقة، عليه أن يسلكها إلى الجسور السبعة جميعها .

---

* منطقة محلية ذات مناظر طبيعية خلابة في غرب وسط كاليفورنيا، جنوب مدينة مونتيري على ساحل المحيط الهادئ. (المترجم)

** مدينة في غرب وسط كاليفورنيا، وهي منتجع على المحيط الهادي، جنوب مدينة مونتيري. (المترجم)

*** أكبر ولايات الهند من حيث المساحة، وتقع في شمال غرب الهند، وتمثل حدودها الغربية جزءاً من حدود الهند مع باكستان. (المترجم)

كان من السهل العثور على الجسور الستة الأولى، فيما كان يخطط لطريقة تصويرها. أما سابعها، في مكان يدعى جسر (روزمان Rosman)، فقد استعصى العثور عليه. كان الجو حاراً، وكان هو حاراً، حتى سيارته (هاري Harry) كانت حارة. كان يجول حول طرقات من الحصى لا تؤدي إلا إلى طريق آخر من الحصى .

في البلاد الأجنبية، كانت حكمته بحسب تجربته " اسأل ثلاث مرات " . لقد اكتشف أن ثلاث إجابات حتى لو كانت خاطئة، فإنها تدفعك تدريجياً إلى المكان الذي تريد أن تذهب إليه. أما هنا، فربما إجابتان تكونان كافيتين .

كان يقترب من صندوق بريد مثبّت في نهاية ممر طوله حوالي مئة ياردة، مكتوب عليه: ريتشارد جونسون، RR 2 . أبطأ سرعته واستدار نحو الممر، لعله يجد دليلاً .

عندما تقدم نحو الفِناء، كانت هنالك امرأة جالسة على شرفة منزلها الأمامية. كان الجو مائلاً إلى البرودة فيما كانت هي تشرب شيئاً بدا له أكثر برودة. خرجت من الشرفة تجاهه، فترجل من السيارة ونظر إليها، اقترب منها وظل ينظر إليها. كانت جميلة، أو كانت جميلة فيما مضى، أو ربما تعود كما كانت مجدداً. وسرعان ما شعر بعدم حنكته التي طالما عانى منها، مع النساء اللائي انجذب إليهن إلى حد ما .

فرَنتشيسكا

وفصل الخريف في أوجِه، كان يوم عيد ميلاد فرنتشيسكا، والمطر البارد قد اجتاح منزلها الخشبي في الريف الجنوبي لولاية أيَوا. تابعت هطول المطر وهي تنظر إلى الهضاب على طول نهر (ميدل ريفر Middle River)، وتفكر بـ (ريتشارد Richard) . لقد مات في يوم كهذا اليوم منذ ثماني سنوات، جرّاء شيء، تُفضِّل ألا تتذكره. لكن فرنتشيسكا تفكر الآن به وبلطفه الدائم، بنهجه الثابت، وبالحياة البسيطة الهادئة التي وفّرها لها.

تلقت اتصالاً من من ابنها وابنتها. لا أحد منهما سيكون قادراً على المجيء إليها هذا العام للاحتفال مرة جديدة بعيد ميلادها السابع والستين. لقد تفهمت ذلك، كما سبق أن تفهمته دائماً من قبل، وكما ستتفهمه دائماً بعد الآن. فكلاهما كانا في منتصف

حياتهما المهنية، يكِدّان في عملهما في إدارة مستشفى، وفي تدريس طلاب. مايكل سيتزوج ثانية، أما كارولين فهي تكافح في زواجها الأول. كانت فرنتشيسكا مسرورة في سِرّها لعدم وجود ما ينبئ بنيّتهما في زيارتها بمناسبة عيد ميلادها، إذ لديها ترتيباتها الخاصة المبيّتة لذلك اليوم.

لقد توقف عندها هذا الصباح أصدقاؤها من مدينة (وينترست Winterset)*، جالبين معهم قالب حلوى عيد الميلاد. أعدت لهم القهوة فيما الحديث كان يدور عن أحوال الأحفاد والبلد، وعن يوم عيد الشكر، وما يتوجب تحضيره لليلة عيد ميلاد المسيح. الضحك الهادئ، وارتفاع وانخفاض مستوى صوت الحديث الوارد من غرفة المعيشة، كان – بما فيه من عدم تكلّف – يبعث في نفس فرنتشيسكا الشعور بالراحة، ويُذكّرها بأحد الأسباب التي جعلتها تبقى حيث هي بعد موت زوجها ريتشارد.

عَمِل مايكل في ولاية فلوريدا، أما كارولاين فقد أقامت في منطقة نيو إنجلاند. لكن فرنتشيسكا بقيت في هضاب جنوبي ولاية أيوا، محافظة على عنوانها القديم لأسباب خاصة، وكانت مسرورة بذلك.

راقبت فرنتشيسكا أصدقاءها وهم يغادرون في وقت الغداء بسياراتهم البويك والفورد، متجهين إلى أسفل الممر ومنعطفين نحو الطريق المعبدة للمقاطعة، قاصدين مدينتهم وينترست، فيما كانت ماسحات زجاج سياراتهم تدفع بماء المطر جانباً. كانوا أصدقاء جيدين على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من سبر ما في أعماقها، ولن يتمكنوا حتى لو أخبرتهم به .

حين أتى بها زوجها من مدينة نابولي في إيطاليا، بعد الحرب، كان قد قال لها إنها ستجد أصدقاء جيدين. وكان قد قال " إن لسكان أيَوا أخطاءهم، لكن ليس منها عدم الرعاية ". وكان ما قاله صحيحاً.

كانا قد تقابلا يوم كانت في الخامسة والعشرين، وقد مضت ثلاث سنوات على تركها الجامعة، تُعلّم في مدرسة خاصة للبنات، متحيّرة في مستقبلها. معظم الشباب الإيطاليين كانوا قد ماتوا أو جُرحوا، أو ضمن مخيمات الأسرى أو معطوبين جراء القتال. علاقتها مع (نيكولو Niccolo) أستاذ الفنون في الجامعة، والذي كان يرسم طوال

* مدينة في مقاطعة ماديسون بولاية أيَوا. (المترجم)

النهار، ويأخذها معه في جولات برّية متهورة ليلاً نحو الطرف السفلي من نابولي، كانت قد انقطعت منذ سنة، جراء الضغط المتواصل عليها من والديها المحافظين .

كانت تزين شعرها الأسود بأشرطة، هائمة بأحلامها. لكن ليس ثمة من ينظر إليها في تلك الأيام من أولئك البحّارين الوسيمين النازلين من سفنهم، ليس ثمة في الشارع من أصوات تصعد إلى نافذتها. إن ضغط الواقع الصعب جعلها تدرك أن خياراتها مقيّدة. وكان ريتشارد من عرض عليها بديلاً معقولاً – الحنان، وما تَعِد به أميريكا من حياة حلوة .

لقد درست شخصيته وهو في بِزّته العسكرية حين كانا جالسين في مقهى تحت أشعة شمس البحر المتوسط، بدا لها جادّاً معها بأسلوبه الغرب أوسطي، فأتت معه إلى ولاية أيَوا. أتت ليكون لها منه أطفال، لتراقب مايكل يلعب كرة القدم في ليالي أكتوبر الباردة، لتأخذ كارولاين إلى مدينة (دي موين) من أجل ألبستها لحفلات الرقص. تبادلت الرسائل عدة مرات في كل سنة مع أختها المقيمة في نابولي، وعادت إلى هناك مرتين حينما تُوفي كل من والديها. لكن مقاطعة ماديسون كانت الآن موطنها، ولم تعد توّاقة للرجوع إلى نابولي مرة أخرى .

توقف المطر وقت منتصف بعد الظهر، ثم تابع هطوله قبيل المساء. عند المغيب، صبّت فرانتشيسكا كأساً صغيراً من شراب (البراندي Brandy)، وفتحت الدُرج السفلي من مكتب ريتشارد – القطعة المصنوعة من خشب الجوز والمتوارثة عبر ثلاثة أجيال من عائلته. أخرجت مغلف رسالة مصنوع من نبتة الـ (مانيلا) ومرّرت يدها عليه ببطء، كما تفعل في كل سنة في مثل هذا اليوم.

قرأت خاتم البريد " سياتل، واشنطن، ١٢ سبتمبر ١٩٦٥ ". من عادتها دائماً أن تنظر إلى خاتم البريد أولاً، فذلك جزء من طقوسها، ثم انتقلت إلى العنوان المكتوب بخط اليد:
" فرنتشيسكا جونسون، RR 2 ، وينترسِت، أيَوا ". ويليه عنوان المرسِل، كُتِب مُخَربَشاً دونما عناية في الطرف العلوي الأيسر: " صندوق بريد ٦٤٢، بيلينغهام، واشنطن ". جلست على كرسي بجانب النافذة، ونظرت إلى العنوان بتركيز، ذلك لأن ما يحويه العنوان كان حركة يدَيه، وهي تريد أن تسترجع شعورها بتلك اليدين على مدى اثنين وعشرين عاماً مضت .

حينما تمكنت من استعادة الشعور بيديه يلمسانها، فتحت المغلف، وأخرجت ثلاث رسائل، مخطوطاً، صورتين، وإصداراً كاملاً من مجلة ناشيونال جيوغرافيك، مع قصاصات من إصدارات أخرى للمجلة. هناك، وضوء النهار الفضّي آخذ في التلاشي، أخذت رشفة من البراندي ناظرة إلى حافة الكأس ومنها إلى الورقة المكتوبة بخط يدها مرفقة بصفحات المخطوطة المطبوعة. الرسالة كانت مكتوبة على ورقة بسيطة من أوراق قرطاسيته الخاصة، تحمل عبارة " الكاتب المصوِّر، روبرت كينكايد "، وذلك في أعلى الصفحة، ودونما تكلّف :

١٠ سبتمبر، ١٩٦٥

فرنتشيسكا العزيزة ،

أرفق لك بهذه الرسالة صورتين. واحدة التقطُّها لك بين العشب عند الغروب. أتمنى أنك أحببتِها بقدر ما أحببتُها. الثانية هي صورة جسر روزمان قبل أن أزيل قُصاصتك من عليه. أنا جالس أستجمع كل تفاصيل ولحظات الوقت الذي أمضيناه معاً. أسأل نفسي مراراً وتكراراً ما الذي حدث لي في مقاطعة ماديسون بأيَوا، وأجاهد نفسي كي أربط التفاصيل ببعضها. ذلك هو السبب الذي جعلني أكتب المقطوعة الصغيرة " السقوط من البُعْد [ص] " التي أرفقها، محاولاً تنقية نفسي من تشوش يكتنفها .

أنظر إلى أسفل حجرة عدسة التصوير، فأراك في نهايتها. أبدأ العمل على كتابة مقالة، وإذا بي أراني أكتب عنك. حتى إني لست متأكداً كيف عدتُ من أيَوا إلى هنا. لقد جلبتني سيارتي القديمة على نحو ما إلى هنا، وأنا بالكاد أذكر الأميال التي اجتزتها.

منذ بضعة أسابيع، شعرت باستقلاليتي، وبأني راضٍ على نحو معقول، ربما لست سعيداً في أعماقي، ولعل ذلك بسبب شعوري قليلاً بالوحدة ، لكن على الأقل أشعر بالرضا. لكن، كل تلك المشاعر قد تغيّرت .

أصبح جلياً لِيَ الآن، أني كنت أسير نحوك، وأنت كنت تسيرين نحوي، لمدة طويلة. على الرغم من عدم معرفة أحدنا بالآخر قبل تلاقينا، كان ثمة نوع من قدَر يُدَندِن مسروراً على غير علم مِنّا، مُؤَكِّداً أننا سنلتقي. مثل طائرين منفردين يحلقان فوق المروج الخضر الشاسعة، بمشيئة سماوية، وعلى مدى كل هذه السنين من حياتنا، كل منا كان يسير نحو الآخر.

وأنا أمشي بتثاقل على طريق لم أسلكه من قبل، رفعت نظري، وإذا بي أراك هناك تمشين بين العشب نحو سيارتي في يوم من شهر أغسطس. حين أستذكر ما كان بيننا ، يبدو لي أمراً محتوماً – ولا يمكن أن يكون غير ذلك – إنها حالة أدعوها الاحتمال الكبير لحدوث ما هو غير محتمَل حدوثه.
ها أنا إذن، أجول مع كيان آخر أحسّه في داخلي. ذلك على الرغم من أني أعتقد أني اتخذت القرار الأفضل يوم افترقنا، حين قلتُ ثمة كيان ثالث قد أوجدناه من كلينا.
إن ذاك الكيان لا يني الآن يلاحقني.
علينا بطريقة ما، أن نرى بعضنا ثانية. في مكان ما، في وقت ما. اتصلي بي إن احتجتِ لأي شيء، أو لمجرد أنك تريدين رؤيتي، أكون عندك حالاً. أعلميني إن كان بإمكانك أن تأتي إليّ في وقت ما – أي وقت. بإمكاني أن أحجز لك تذكرة طائرة إن كان أمرها صعباً عليك.
في الأسبوع القادم سأسافر إلى جنوب شرق الهند وسأعود في أواخر أكتوبر.

أحبك..
روبرت

ملحوظة: مشروع الصورة في مقاطعة ماديسون أتى بنتيجة ممتازة. انظري إليه في مجلة (N.G.) العام المقبل، أو أعلميني إن كنت تريدين أن أرسل لك نسخة من الإصدار عندما يُنشر .

وضعت فرنتشيسكا جونسون كأس البراندي على عتبة النافذة العريضة من خشب السنديان، وحدّقت في صورة لها بقياس ثمانية بعشرة، بالأبيض والأسود. كان يصعب عليها أحياناً أن تتذكر كيف كانت تبدو آنذاك، قبل اثنتين وعشرين سنة، وهي ترتدي جينزاً ضيّقاً باهت اللون، قميصَ (تي شيرت T-shirt)، وتنتعل صندلاً. شعرها يطيّره نسيم الصباح، وهي متّكِئة على دعامة سور الحديقة .

من مكانها على النافذة، ومن خلال المطر، استطاعت أن ترى الدعامة حيث السور القديم مازال يحيط بالمرعى. حينما أجّرت الأرض، بعد موت ريتشارد، اشترطت على المستأجر أن يبقى المرعى سليماً دون أن تلمسه يد. كان خاوياً الآن وقد تحول إلى مرج.

التغضُّنات الأولى كانت قد بدأت تظهر على وجهها في الصورة، كاميرته قد كشفتها. بقيت مسرورة بما رأت. فشعرها كان أسودَ، وجسدها كان ممتلئاً ودافئاً، قد ملأ كامل

الجينز. ومع ذلك فوجهها هو الذي كانت تحدّق فيه. كان وجه امرأة تعاني من حبها للرجل الذي يلتقط الصورة.

مع تدفق ذكرياتها، كان بإمكانها أن تراه بوضوح. في كل سنة تستعرض، بدِقّة، كل الصور في ذاكرتها، متذكرة كل شيء، ناسية لا شيء، دامغة كل ذلك في نفسها، إلى الأبد، شأنها في ذلك شأن رجال القبائل وهم يستعرضون تاريخاً شفوياً عبر الأجيال. كان طويلاً ونحيفاً ومتيناً، وكان يتحرك كالعشب تماماً، برشاقة دونما أي جهد. شعره الرمادي الفضّي منسدل حتى أذنيه، وغالباً ما كان يبدو أشعثَ، كما لو أنه آت لتوه من رحلة بحرية طويلة عبر رياح عاتية، وقد حاول أن يصففه بيده كيفما اتفق.

وجهه النحيل، عظام خدّيه البارزة، وغرّة شعره على الجبين، وعيناه الزرقاوان، لم يمكّنوها من أن تكُفّ عن النظر، كي تنتقل إلى الصورة التالية. كان قد ابتسم لها ابتسامة عريضة قائلاً كم تبدو رائعة ودافئة مع بزوغ الفجر، طالباً منها أن تتكئ على الدِعامة، ثم راح يتحرك حولها بحركة قوسية عريضة، يلتقط الصور على مستوى الركبة، ثم واقفاً، ثم مستلقياً على ظهره والكاميرا موجهة إلى الأعلى نحوها .

كانت متحرّجة من مقدار ما استهلكه من فيلم التصوير، لكنها كانت مسرورة بمقدار ما أبداه من اهتمام بها. لقد أمِلتْ ألّا يكون أحد من جيرتها قد خرج باكراً على جَرّاره. ومع ذلك، ففي ذلك الصباح الخاص، لم تكن مهتمة كثيراً بالجيران وبما يفكرون به . التقط صوراً، لقّم أفلام التصوير، غيّر عدسات، غيّر كاميرات، التقط صوراً أخرى، وتحدث إليها بهدوء فيما كان يعمل ذلك. قال لها دائماً كم بدت له جميلة، وكم أحبها " فرنتشيسكا، أنت جميلة على نحو لا يُصدّق ". أحياناً كان يتوقف ويظلّ محدّقاً فيها، عبرها، حولها، داخلها .

حَلْمَتاها كانتا محدّدتين بوضوح جراء انضغاطهما بقميص الـ (تي شيرت). ومن الغريب أن ذلك لم يكن يهمّها - أن تكون عارية تحت القميص. بل أكثر من ذلك، كانت مسرورة بذلك وبمعرفتها أنه يتمكن من رؤية نهديها بوضوح في عدسات التصوير. هي لم تتزيّا على هذا النحو في أثناء وجود ريتشارد. هو لم يكن ليوافق. وهي في الحقيقة، قبل أن تقابل روبرت كينكايد، لم تتزيّا بهذه الطريقة في أي وقت مضى .

روبرت كان قد طلب منها أن تقوّس ظهرها قليلاً، وهمَس بعدها " نعم، نعم، هكذا، ابقي كما أنت ". كان ذلك حينما التقط الصورة التي تُمعن النظر فيها الآن. الإضاءة كانت مثالية، وهذا ما قد قاله " إشراق غائم " وهذا ما سمّى به الصورة، وراح يلتقط

صورة تلو الصورة وهو يدور حولها .كان رشيقاً، تلك هي الكلمة التي فكرت بها فيما كانت تراقبه.

يوم كان في الثانية والخمسين كان جسمه بأكمله ذا عضلات نحيفة – عضلات تتحرك بكثافة وقوة، لا تكون إلا للرجال الذين يعملون بجهد ويعتنون بأنفسهم. لقد أخبرها أنه كان مصوراً حربياً في المحيط الهادئ، وفرنتشيسكا تستطيع تخيله خارجاً مع الجنود البحارة من الشواطئ المشبعة بالدخان، الكاميرات ترتطم به، واضعاً إحداها أمام عينه، ومصراعها ملتهب جرّاء سرعة التقاطه الصور.

أمعنت النظر إلى الصورة ثانية، دققت فيها، وقالت لنفسها " أنا أبدو حسنة "، مبتسمة لنفسها معجبة بذاتها إلى حد ما. قالت " أنا لم أبدُ بهذا الحسن من قبل أو من بعد. السبب يعود إليه ". وأخذت جرعة أخرى من البراندي، فيما المطر تسلّق ممتطياً بقوة ظهر رياح نوفمبر .

روبرت كينكايد كان ساحراً من نوع ما، عاش داخل ذاته في أماكن غريبة غير آمنة إلى حد ما. كان يوم الاثنين من شهر أغسطس ١٩٦٥، حاراً وجافاً، حين أحسّت فرنتشيسكا بقدومه فور ترجّله من سيارته على ممر منزلها. كان ريتشارد والطفلان في معرض ولاية (إلينوي Illinois) لحضور منح جائزة قد حظيت باهتمام الآخرين أكثر من اهتمامها، فكان لها أن أمضت الأسبوع لوحدها .

كانت جالسة على أرجوحة الشرفة الأمامية، تشرب شاياً مثلّجاً، حين تصادف أن رأت غباراً يتصاعد من تحت سيارة (بيك أب) قادمة على طريق المقاطعة. كانت السيارة تتحرك ببطء، كما لو أن سائقها يبحث عن شيء ما، توقف قريباً جداً من ممر منزلها، ثم التفّ بها نحو منزلها. أوه.. يا إلهي.. قالت في نفسها. من هذا ؟

كانت حافية القدمين، ترتدي بنطال جينز وقميص عمل لونه باهت الزرقة بأكمام مطويّة إلى أعلى وذيله خارج البنطال. أما شعرها الأسود الطويل فقد كان مثبتاً في أعلى رأسها بمشبك من صدف ظهر السلحفاة، كان والدها قد أعطاه لها حين غادرت موطنها. تحركت السيارة متقدمة في الممر وتوقفت قرب البوابة عند السور السلكي المحيط بالمنزل.

خرجت فرنتشيسكا من الشرفة ومشت على مهل عبر العشب نحو البوابة. خارجاً من سيارته تقدم روبرت كينكايد نحوها وهو يبدو كخيال ما من كتاب لم يُكتب من قبل، عنوانه تاريخ الـ (شامانات Shamans)* بالصور.

كان قميصه الغامق عسكري الطراز ملتصقاً بظهره بالعَرَق، وثمة دوائر داكنة عريضة من العرق تحت إبطيه. أزرار القميص العلوية الثلاثة غير مزرّرة، فاستطاعت أن ترى عضلات صدره المشدودة تحت السلسلة الفضية البسيطة حول رقبته. كانت على كتفيه حمالتا بنطال عريضتان بلون برتقالي، من النوع الذي يرتديه الذين يُمضون أوقاتاً طويلة في المناطق البريّة .

ابتسم وقال " آسف لإزعاجك، لكني أبحث عن جسر مسقوف على هذا الطريق، ولا أتمكن من العثور عليه. أعتقد أني تائه إلى الآن ". مسح جبينه بمنديل أزرق، وابتسم ثانية .

كانت عيناه تنظران مباشرة إلى عينيها، فشعرت بشيء ما يقفز في داخلها. العينان، الصوت، الوجه، الشعر الفضي، الطريقة العفوية التي يتحرك بها جسده، أساليب قديمة، أساليب مربكة، أساليب تشدك إليها. أساليب تهمس لك في اللحظة الأخيرة قبل الشعور بالنعاس، لحظة سقوط الحواجز. أساليب تعيد ترتيب المجال الجزيئي بين الذكر والأنثى، بغض النظر عن النوع .

الأجيال لا بدّ من أن تتعاقب، والأساليب ستبقى هامسة بذلك المطلب الوحيد، ولا شيء أكثر من ذلك. الطاقة لا نهائية، والخطة محكمة على أحسن ما يكون. الأساليب راسخة وهدفها واضح. الأساليب بسيطة، نحن من جعلها تبدو معقّدة. وفرنتشيسكا أحست بهذا دون أن تدرك أنها كانت تحسّه، لقد أحسّته على مستوى خلاياها. وعند هذا بدأ الشيء الذي سيغيّرها إلى الأبد .

مرّت سيارة على الطريق، ناشرة الغبار خلفها، مُطلِقة صوت بوقها. لوّحت فرنتشيسكا بيدها رداً على ذراع (فلويد كلارك Floyd Clark) السمراء الممدودة من نافذة سيارته الـ (تشِفْروليه)، والتفتت ثانية إلى الغريب " أنت قريب جداً، الجسر على بعد ميلين

* شامان: اسم ليس له معنى، بل هو لقب ديني عند المغول، حيث يُعرف كاهنهم وواعظهم بهذا الاسم ، ويكون عادة بارعاً في السحر والكهانة، ومن خلال هذا الاسم ظهرت ديانة عندهم (غير سماوية) تعرف باسم الديانة الشامانية. (المترجم)

فقط من هنا ". بعد ذلك، وبعد عشرين سنة من عيش حياة محصورة بسلوك مقيّد ومشاعر مكبوتة تتطلبها التقاليد الريفية، فإن فرنتشيسكا جونسون فاجأت نفسها وهي تقول: " يسرُّني أن أُريكَهُ إن أردتَ " .

لم تكن متأكدة البتة لِمَ قد فعلت ذلك. لكن مشاعر فتاة شابة عادة ما تتأجج مثل فقاعات تتفجر في الماء، ربما بعد كل هذه السنوات. لم تكن خجِلة، لكنها أيضاً لم تكن مندفعة. الشيء الوحيد الذي استطاعت استنتاجه هو أن روبرت كينكايد قد جذبها بطريقة ما، بعد بضع ثوان من النظر إليه .

اندهاشه بعرضها كان بادياً عليه إلى حد ما، لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته، وقال وعلامات الجد بادية على وجهه، إنه سيكون ممتنّا. من خلف السُلّم، التقطت حذاءها الـ (كاوبوي) الذي تنتعله لأعمال المزرعة، ومشت إلى سيارته تتبعه لتركب إلى جانبه.

" تلزمني دقيقة لأفسح لكِ مجالاً، الكثير من المعدات والأشياء هنا " تمتم وهو يقوم بذلك، فقالت له يبدو أنه مرتبك وخجل بعض الشيء، من مجمل الأمر .

كان يُعيد ترتيب أكياس قماشية ومنصَبين، قارورة ترموس، وأكياس ورقية. في خلفية (البيك أب) هناك حقيبة سامسونايت داكنة، وحقيبة غيتار، مُندعِكّتان على بعضهما، يغطيهما الغبار، ومربوطتان إلى العجلة الاحتياطية بقطعة من حبل غسيل .

انغلق باب السيارة لاطِماً مؤخّرته بينما كان يتمتم ويفرز ويدُسّ أكواب قهوة ورقية وقشور موز في أكياس بِقالة ويرميها في صندوق السيارة. وأخيراً نقل الثلاجة ذات اللونين الأزرق والأبيض ووضعها في الخلف أيضاً. بطِلاء أحمر باهت، طُبع على باب السيارة الخضراء " كينكايد لأعمال التصوير، بيلينغهام، واشنطن " .

" حسناً، أعتقد أنه صار بإمكانكِ الآن أن تحشري نفسك هناك ". أمسك الباب وأغلقه خلفها، واستدار نحو جانب القيادة، وبرشاقة مميزة كرشاقة الحيوانات، صار خلف مقود السيارة. نظر إليها نظرة خاطفة مع ابتسامة خفيفة وقال: " أيَّ طريق؟ ".

" إلى اليمين" مشيرة بيدها. أدار المفتاح، فدار المحرك. انطلق على طول الممر نحو الطريق، ساقاه تتحركان آلياً على الدوّاسات، وبنطاله الجينز (لِفيز Levi’s) القديم ينزلق فوق حذائه الجلدي الميداني بني اللون، الذي شهد أميالاً كثيرة قد مرّ بها .

انحنى نحو صندوق لوحة القيادة، فمَسّ ساعِدُه مصادفةً أسفل فخذها. فيما كان يُنقّل نظره ما بين الزجاج الأمامي والصندوق، أخرج بطاقة عمل وأعطاها لها " روبرت

كينكايد، مصور صحفي ". كان عنوانه مطبوعاً على البطاقة مع رقم هاتفه .
قال لها " أنا هنا في مهمة عمل لصالح مجلة ناشيونال جيوغرافيك، هل أنتِ على دراية بها ؟ "
" نعم " أومأت فرنتشيسكا برأسها، قائلة لنفسها، وهل ثمة من ليس على دراية بها ؟
قال متابعاً " هم يقومون بتحقيق حول الجسور المُغَطّاة، ومن الواضح أن مقاطعة ماديسون بأيَوا فيها جسور مثيرة للاهتمام. لقد عثرتُ على ستة منها، لكني أظن أن هنالك ، على الأقل، جسراً آخر، ويُفترض أن يكون بهذا الاتجاه " .
تابعت فرنتشيسكا قائلة بصوت يعلو على ضجيج الريح والعجلات والمحرك
" إنه يدعى جسر روزمان ". بدا صوتها غريباً، كما لو أنه يعود لشخص آخر، لمراهقة تنحني من نافذة في مدينة نابولي، ناظرة إلى شوارع المدينة البعيدة نحو القطارات، أو إلى الميناء، وهي تفكر بأحبّة بعيدين لم يأتوا بعد. فيما كانت تتحدث، لاحظت عضلاته وهو يثني ساعده ليبدل السرعات .

كان بجانبها حقيبتا ظهر، غطاء إحداها كان مغلقاً، لكن غطاء الأخرى كان مثنيّاً إلى الخلف، فتمكنت من رؤية غطاء فِضيّ اللون وظهرٍ أسود لكاميرا بارزة من الحقيبة. طرف علبة فيلم (كوداك كروم II، ٢٥-٣٦ لقطة) كانت مثبتة بظهر الكاميرا. خلف الرُّزَم، حُشِرت صُدرة بلون بني كاشف بعدّة جيوب. ومن أحد الجيوب تدلّى حبل رفيع عُلّق في نهايته غطّاس . خلف قدميها، كان هناك منصَبان خُدِشا بشِدّة، لكنها تمكنت من قراءة اللصاقة المهترئة على أحدهما (جيتزو Gitzo). حين فتح صندوق لوحة القيادة، كانت قد لاحظت أنه محشوّ بمفكّرات، خرائط، أقلام، وعلب فارغة لحفظ الأفلام، نقود معدنية، وعلبة سجائر (كَمل) .

قالت له " انعطف يميناً عند الزاوية التالية ". أعطاها ذلك عذراً لنظرة خاطفة إلى وجه روبرت كينكايد، جانبياً. بشرته كانت مسْمرّة وناعمة، لامعة بعَرَقه. كانت له شفتان حلوتان، لسبب ما قد لاحظت ذلك سريعاً. وأنفه كان كالذي رأته لرجال هنود خلال عطلة قضتها الأسرة في المنطقة الغربية حينما كان ولداها صغيرين .

لم يكن وسيماً – ليس بالمعنى التقليدي للكلمة، ولم يكن بيتِيّاً. فهذه الكلمات لا تنطبق عليه. لكن كان هناك شيء ما – شيء ما فيه. شيء ما عتيق جداً، شيء ما من قسوة السنين، ليس في مظهره، لكن في عينيه . في معصمه الأيسر كان يلبس ساعة تبدو معقّدة، برباط جلدي بُنّيّ شُرّب بعَرَقه. وفي معصمه الأيمن جديلة سوار فضي.

فكّرت فرنتشيسكا في أنه بحاجة إلى أن يُفرَك بمُلمِع الفضة. ثم أنّبت نفسها لكونها مأسورة ضمن توافه حياة بلدة صغيرة لطالما ثارت بصمت ضدها على مدى سنوات .

أخرج روبرت كينكايد علبة سجائر من جيب قميصه، سحب سيجارة حتى منتصفها وعرضها عليها. للمرة الثانية في غضون خمس دقائق، تفاجئ نفسها، وتأخذ السيجارة. قالت لنفسها ما هذا الذي أفعله! كانت تدخن منذ سنوات، لكنها توقفت عن التدخين تحت ضغط الانتقاد المستمر من قبل ريتشارد. سحب روبرت واحدة أخرى، وضعها بين شفتيه، وأشعل ولاعة (زيبّو Zippo) ذهبية وقربها منها مبقياً عينيه على الطريق. أحاطت الولاعة بيديها لتمنع الريح من إطفائها، ولامست يدَه لتثبتها، كيلا تتأرجح مع ارتجاج السيارة. أشعلت سيجارتها بلحظة وجيزة، لكنها كانت كافية لتشعر من خلالها بدفء يده، وبالشعيرات على ظهر يده. عادت إلى الوراء مُسندة ظهرها، فيما هو حوّل الولاعة ناحية سيجارته، وبمهارة أحاطها بيديه ليحجب عنها الريح تاركاً المقود لأقل من ثانية .

فرنتشيسكا جونسون، زوجة المُزارع، تراخت على مقعد السيارة المُغبرّ، تدخّن سيجارتها، وأشارت بيدها " إنه هناك، بجانب المنعطف تماماً ". اللون الأحمر للجسر القديم كان يتقشر، وقد مال قليلاً على مر السنين قابعاً على ضفتي نهر صغير.

حينذاك، ابتسم روبرت كينكايد، وبسرعة نظر إليها وقال " عظيم.. لقطة عند الشروق ". توقف على بعد مئة قدم من الجسر، وخرج من سيارته، آخذاً معه حقيبة الظهر المفتوحة " أنا ذاهب لأستطلع قليلاً لدقائق، هل لديك مانع ؟ " هزت رأسها وردت على ابتسامته بابتسامة .

راقبته فرنتشيسكا صاعداً طريق المقاطعة، وهو يتناول كاميرا من حقيبة الظهر، ثم يعلّق الحقيبة على كتفه الأيسر. لا بد أنه قد فعل الحركة ذاتها آلاف المرات. هذا ما فكرت به فرنتشيسكا لسلاسة حركته. فيما كان يمشي، لم يتوقف رأسه عن الحركة، وهو ينظر من جانب إلى جانب، ثم إلى الجسر، وإلى الأشجار خلف الجسر. التفت مرة واحدة إلى الوراء ونظر إليها وعلى وجهه قسمات الجِد .

على النقيض من بعض الناس المحليين، الذين اعتادوا التغذي بمرق اللحم مع البطاطا واللحم الأحمر، ثلاث مرات في اليوم، فإن روبرت كينكايد بدا كما لو أنه لا يأكل شيئاً سوى الفاكهة والمكسَّرات والخضروات. قالت في نفسها إنه صلب، فهي تراه ذا جسد متين. وقد لاحظت كم هي صغيرة مؤخّرته في جينزه الضيق – فمحفظة جيبه بارزة

المعالم من جيبه الأيسر، كما منديله من جيبه الأيمن – وكم بدا يتحرك بثبات على الأرض .

كان الجو هادئاً. ثمة شحرور جالس على سلك سياج ينظر إلى وجهها. و قبّرة تنادي من العشب على جانب الطريق. لا شيئ آخر يتحرك تحت الشمس البيضاء في شهر أغسطس .

على مقربة من الجسر، توقف روبرت كينكايد، وظل واقفاً هناك للحظة، ثم قرفص ناظراً من خلال الكاميرا. مشى إلى الطرف الآخر من الطريق وفعل ذلك ثانية. ثم انتقل إلى تحت غطاء الجسر، درس الدعامات وألواح الأرض الخشبية، ونظر إلى النهر في الأسفل من خلال فتحة جانبية .

أطفأت فرنتشيسكا سيجارتها في المنفضة، فتحت باب السيارة وداست بحذائها على الحصى. نظرت حولها لتتأكد من عدم وجود أي سيارة لجيرانها آتية، ومشت نحو الجسر. كانت الشمس شديدة الحرارة في وقت متأخر من بعد الظهر، لكن الجو داخل الجسر كان لطيفاً. استطاعت أن ترى ظله على الطرف الآخر حتى اختفى أسفل المنحدر نحو النهر .

وهي داخل الجسر، سمعت الحمائم تثرثر بنعومة في أعشاشها تحت الأفاريز، ووضعت راحة يدها على الألواح الخشبية الجانبية، تكتنفها الحماسة. كانت هناك كتابة مخربشة على بعض الألواح (جيمبو Jimbo ... دِنيسون Denison – أيَوا Io). (شيري Sherry + دَبِي Dubby). (انطلقوا يا شجعان! Go Hawks!)، فيما الحمائم ظلت تثرثر بنعومة .

نظرت فرنتشيسكا - من خلال شق بين اللوحين الخشبيين الجانبيين – إلى النهر في الأسفل، حيث كان روبرت. كان يقف على صخرة في منتصف النهر الصغير، ينظر نحو الجسر، ففزعت عليه إذ رأته يلوح لها بيده. قفز عائداً إلى الضفة وتقدم بسهولة صاعداً الضفة شديدة الانحدار. ظلّت تنظر نحو الماء حتى أحست وقع قدميه على الجسر . " إنه لمكان لطيف حقاً، وجميل حقاً "، قال ذلك، فارتدّ صدى صوته داخل الجسر المسقوف . أومأت فرنتشيسكا برأسها " نعم، إنه كذلك. لكن نحن اعتدنا على وجود هذه الجسور حولنا، فلم نعد نفكر فيها كثيراً " .

مشى نحوها ممسكاً بباقة صغيرة من الزهور. " شكراً لجولة الإرشاد " قالها وهو يبتسم برقة. " قريباً سأعود يوماً عند الفجر لألتقط الصور ". شعرتْ ثانية بشيء في داخلها. زهور! ما حدث يوماً أن أعطاها أحد زهوراً، حتى في المناسبات الخاصة .

قال لها " أنا لم أتعرّف على اسمك ". أدركتْ أنها لم تخبره باسمها، وشعرت بالغباء حيال ذلك. وحين أخبرته، أومأ برأسه وقال " لاحظت أثراً في لكنتك. هل أنت إيطالية؟ ". أجابت " نعم. في زمان مضى ".

السيارة الخضراء ثانية، على طول الطرق غير المعبدة، والشمس تغوص وراء الأفق. مرّا في طريقهما بسيارات، مرتين، لكن ليس فيها من تعرفه. خلال الدقائق الأربع التي استغرقها الطريق للوصول إلى المزرعة، انكمشت على نفسها وأحست بتشتت وشعور غريب. فهي راغبة بروبرت كينكايد أكثر من كونه الكاتب المصوّر. أرادت أن تعرف أكثر، وتشبثت بباقة الزهور في حضنها ورفعتها إلى أعلى، كتلميذة مدرسة عائدة من نزهة . شعرتْ بالدم يصعد إلى وجهها. لم تفعل أي شيء، ولم تقل أي شيء، لكنها أحست كأنها فعلت وقالت. أغنية بمصاحبة آلة الغيتار، تبِعتْها نشرة أخبار الساعة الخامسة، بالكاد كانتا تُسمَعان من راديو السيارة، بسبب ضجيج الطريق والريح .

أدار السيارة صاعداً نحو الممر. " هل ريتشارد زوجك ؟ " سألها حين لمح الاسم على صندوق البريد . " نعم " أجابته فرنتشيسكا بهدوء واقتضاب. ما إن بدأت كلماتها حتى استرسلت قائلة " إن الجو حار، أترغب بشاي مثلج ؟ " . التفت إليها قائلاً " مؤكّداً أرغب، إن ليس من إزعاج ". فأجابته " ليس من إزعاج " .

وجّهتْه – كما كانت تأمل – ليركن سيارته خلف المنزل. لم تكن تريد أن يعود ريتشارد إلى المنزل ويلقى جاراً يقول له "مرحباً يا فتى، هل أنجزتم عملاً هنا ؟ لقد رأيتُ سيارة خضراء هنا الأسبوع الماضي. كنت أعلم أن (فرانّي Frannie) كانت في المنزل، لذا لم أرغب بإزعاجها لأتحرى الأمر".

على الممشى الإسمنتي المكسّر، المؤدي إلى باب الشرفة الخلفية، فتح لها باب السيارة وأمسك بحقيبتي كاميراته، قائلاً لها وهو يسحبهما خارج السيارة " الجو حار جداً، لا يسمح بترك الأجهزة في السيارة " .

كان الجو أبرد قليلاً في المطبخ، لكنه مازال حاراً. الكلب الإسكتلندي الضخم تشمّم حذاء كينكايد، ثم خرج وقبع على الشرفة الخلفية، فيما فرنتشيسكا أخرجت الثلج من صوانٍ معدنية وصبّت الشاي من إبريق زجاجي سعة نصف غالون. كانت تعلم أنه ينظر إليها وهو جالس إلى طاولة المطبخ، ممدِّداً ساقيه الطويلتين أمامه، ينظف شعره بكلتا يديه.

" ليمون ؟ "
" نعم، من فضلك "
" سكّر؟ "
" لا، شكراً "

انساح عصير الليمون ببطء على جانب الكأس، وقد رأى ذلك أيضاً، ولم يَفُت روبرت كينكايد ممّا قامت به فرنتشيسكا إلا القليل .
وضعت فرنتشيسكا الكأس أمامه، ووضعت كأسها على الجانب الآخر من طاولة ذات سطح من خشب الـ (فورمايكا Formica)، ووضعت باقة الزهور في كأس قديم لدِن عليه رسم البطة (دونالد Donald). مُتَّكِئة على المنضدة، وازنت نفسها على ساق واحدة، انحنت وخلعت فردة حذائها. وقفت على قدمها الحافية وعكست العملية لخلع الفردة الأخرى. أخذ رشفّة صغيرة من الشاي وظل يراقبها. كانت بطول خمسة أو ستة أقدام، في الأربعين من العمر أو أكبر قليلاً، ذات وجه حسن، وجسد متناسق مثير. لكن كانت ثمة نساء جميلات حيثما ارتحل. الأمور المتعلقة بالشكل كانت ملفتة له، ومع ذلك، الذكاء والعاطفة المتواجدان بالفطرة، والقدرة على التأثير والتأثر بحدّة الذهن، ورهافة الروح، كانت هي المزايا المأخوذة في حُسبانه. ذاك هو السبب الذي جعله يرى معظم الشابات غير جذّابات، بغض النظر عن جمالهن الخارجي. فهنّ لم يتقدمن بالعمر كفاية، ولم يعاركنّ الحياة كفاية، ليمتلكن تلك الصفات التي تثير اهتمامه . لكن كان ثمة شيء ما في فرنتشيسكا جونسون دعاه إلى الاهتمام بها. لقد أحس بذكائها، بعاطفتها، رغم أنه لم يستطع أن يدرك تماماً إلامَ كانت تلك العاطفة موَجَّهة، أو ما إذا كانت عاطفة متقدة نحو الحياة عموماً .

فيما بعد، سوف يخبرها بطريقة لا يمكن تحديدها، أنه فيما كان ينظر إليها وهي تخلع فردتيّ حذائها في ذلك اليوم، كانت لحظة من أكثر اللحظات الشهوانية التي يمكن أن يتذكرها. أما لماذا لم يرها لحظة هامة له، فذلك لأنه لا ينظر إلى الحياة بذلك المنظار. وقد قال لها " النظر إلى الجزئيّات يفسد الكلّيات. فبعض الأشياء – الأشياء التي تسحرنا، وُجِدت لتبقى كُلّاً دون تفكيك ولا تحليل. إن نظرتِ إلى أجزائها، فإنها سوف تضمحل " .

جلستْ إلى الطاولة، إحدى ساقَيها مثنيّة تحتها، وأرجعت خصلات من شعرها من على وجهها وثبتتها بمشبك من صدف ظهر السلحفاة. ثم، وقد تذكرت، قامت وذهبت إلى آخِر خزانة، أنزلت منها منفضة سجائر، ووضعتها بقربه على الطاولة .

بذلك السماح الضمني، أخرج علبة من سجائره ووجهها نحوها، أخذت سيجارة ولاحظت أنها مبللة قليلاً بعَرَقه الغزير. وكالعادة، قرب منها الولاعة الذهبية (زيبّو)، لمست يدَه لتثبتها، تحسست بشرته برؤوس أناملها، وعادت لتجلس. كان طعم السيجارة طيباً جداً، فابتسمت .

" ما هو عملك بالضبط - أقصد في مجال التصوير؟ "

نظر إلى سيجارته وراح يتحدث بهدوء " أنا صيّاد بموجب عقد – أقصد مصوّر – لصالح مجلة ناشيونال جيوغرافيك، خلال بعض من وقتي. أجمع الأفكار وأبيعها للمجلة وأقوم بالتقاط الصور. أو يكون لديهم مشروع ما يريدون إنجازه، فيتصلون بي. ليس ثمة مجال واسع للتعبير الفني، إذ إن مواضيع المجلة ملتزمة للغاية. لكن الأجر مقبول، ليس كبيراً لكنه مقبول وثابت. فيما يتبقى من الوقت، أكتب وأصور على مزاجي وأرسل نماذج لمجلات أخرى. وإذا أصبحت الأمور صعبة، أقوم بالعمل مع الشركات ولو أنه يقيّدني للغاية .
أكتب الشعر أحياناً، فقط لنفسي. وبين وقت وآخر أحاول كتابة قصة قصيرة، لكن لا يبدو لي أن لدي ميلا لذلك. أنا أعيش شمال (سياتل) وأعمل حول تلك المنطقة قليلاً جداً. أحب أن أصور قوارب الصيد، ومستوطنات الهنود الحمر، والمناظر الطبيعية.
إن العمل في المجلة الجغرافية غالباً ما يستوجب بقائي في موقع ما لبضعة أشهر، وعلى الأخص من أجل عمل هام على شيئ مثل قسم من غابة الأمازون، أو صحراء شمال أفريقيا. أطير عادة إلى مهمة كهذه وأستأجر سيارة. لكن كنت أشعر كأني أقود السيارة عبر بعض الأمكنة وأستكشفها من أجل أن يكون عملي هذا مرجعاً للمستقبل. لقد أتيت مسافراً على طول بحيرة (سوپيريور)، وسأعود عبر التلال السوداء (Black Hills). ماذا عنك ؟ "

لم تكن فرنتشيسكا تتوقع أن يسألها. لقد تلكأت للحظة. " أوه، يا إلهي، لا شيء من قبيل ما تقوم به أنت. لقد حصلت على شهادتي الجامعية في الأدب المُقارَن. مدينة (وينترسِت) كانت تعاني من صعوبة في إيجاد معلمين يوم وصلت إلى هنا عام ١٩٤٦، ولكوني زوجة رجل مَحلّي من المحاربين القدماء فقد قُبِلْت. حصلت على شهادة تأذن لي بالتدريس ودرّست الإنكليزية في مدرسة ثانوية لبضعة سنوات . لكن ريتشارد لم يُحبّذ فكرة أن أعمل. قال إنه قادر على إعالتنا، فلا حاجة لأن أعمل، سيّما وأن طفلينا كانا في طور النمو. لذلك توقفت عن العمل وأصبحت زوجة مُزارعة طيلة الوقت. هذا كل شيء عنّي " .

لاحظت أن كأسه على وشك أن تفرغ من الشاي المثلّج، فصبّت له بعضاً منه من الإبريق.

" شكراً . على أي نحو تحبّين الحياة هنا في أيَوا؟ "

كان ثمة لحظة لمواجهة الحقيقة في هذا السؤال، وقد أحست بذلك. فكانت إجابتها تقليدية " على ما يرام. إنها حياة هادئة. الناس طيبون حقيقة ". لكنها لم تُجب بذلك على الفور.

" هل لي بسيجارة أخرى؟ " مرة أخرى، علبة السجائر، الولاعة، ولمْسُ يده برفق.

مرّت الشمس عبر الشرفة الخلفية وعلى الكلب الذي قام وغاب عن الأنظار. ولأول مرة ركّزت فرنتشيسكا نظرها في عيني روبرت كينكايد.

" يفترض بي أن أقول : الحياة هنا على مايرام، هادئة، والناس حقيقة طيّبون. وذلك كله صحيح في الغالب. الناس طيبون من عدة أوجه. كلنا نساعد بعضنا. إذا مرض أحدنا أو تأذّى، يسارع الجيران لقطف الذُرة، أو لحصاد الشوفان، أو لعمل ما ينبغي عمله. يمكنك ترك سيارتك غير مقفلة في البلدة، وترك أطفالك يسرحون دون أن تقلق عليهم. هنالك أشياء كثيرة جيدة في الناس هنا، وأنا أحترمهم لخصالهم تلك.

" لكن – ترددتْ، أخذت نفَساً من سيجارتها، نظرت من مكانها إلى روبرت كينكايد – ليس ذلك ما حلمْتُ به وأنا فتاة ". اعترفتْ أخيراً. كانت الكلمات مخبأة في داخلها لسنوات دون أن تصرّح بها. لقد صرّحت بها الآن لرجل سيارته (بيك أب) خضراء، من بيلينغهام، واشنطن .

للحظة، هو لم يقل شيئاً. ثم قال " كنت يوماً قد خربشت شيئاً في مفكرتي لأعود إليه في المستقبل، والفكرة أتتني فيما كنت أقود سيارتي – وذلك ما يحدث لي كثيراً – وهي ما معناه : إن أحلامي القديمة كانت أحلاماً جميلة، ولم تتحقق، لكني سعيد بها . لست متأكداً ممّا يعنيه ذلك، لكني سأعود إليه في مكان ما. لذلك أعتقد أني أتفهم شعوركِ إلى حد ما " .

عند ذلك، تبسمت فرنتشيسكا له. لأول مرة تبسمت بحماسة وعمق، وطغت عليها غريزة المقامرة. " أتحب أن تبقى للعشاء؟ إن أسرتي مسافرة، وليس بحوزتي الكثير، لكن أستطيع أن أُحَضّر شيئاً ".

" حسناً، فلقد ضجرت حقيقة من المآكل الجاهزة والمطاعم. إن ليس ثمة من إزعاج، فذلك يسعدني " .

" أتحب شرائح لحم الخنزير؟ يمكنني أن أحَضّرها مع بعض الخضروات من الحديقة".

" الخضروات فقط ستكون مناسبة لي، فأنا لا آكل اللحم منذ سنوات. ولا مشكلة في ذلك، إذ بذلك أكون أكثر راحة " .
تبسّمت فرنتشيسكا ثانية. " وجهة النظر هذه، في هذه الديار، لن تلقى الإجماع. إن ريتشارد وأصدقاءه سيقولون إنك تحاول أن تدمر أسباب عيشهم. أنا لا آكل كثيراً من اللحم، ولا أعلم لماذا، فهو لا يهمني. لكن كلما حاولت تقديم عشاء من دون لحم للأسرة، أسمع صيحات احتجاج. لذا توقفت تماماً عن المحاولة. سيكون ممتعاً لك تذوُّق شيء ما مختلف من باب التغيير".
" حسنا، لكن لا تزعجي نفسك كثيراً من أجلي. اسمعي، لديّ حزمة فيلم في ثلاجتي، عليّ أن أتخلص من ماء الثلج الذائب، وأن أرتّب قليلاً بعض الأشياء. لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ". نهض وشرب ما تبقى من شايه .

لقد راقبته خارجاً من باب المطبخ وعبر الشرفة نحو الساحة. لم يترك باب الغربال يصدر ضجة، كما يفعل الآخرون، بل أغلقه على مهل. وقبيل أن يخرج، قرفص ليلاطف الكلب الأليف الذي عبّر عن شكره بعدة لعقات لذراعيّ روبرت .

في الطابق العلوي، أخذت فرنتشيسكا حمّاماً سريعاً، وفيما هي تجفف نفسها، نظرت من أعلى الستارة نحو ساحة المزرعة. كانت حقيبة سفره مفتوحة، وهو يغتسل مستعملاً المضخة اليدوية القديمة. كان يجدر بها أن تقول له باستطاعته أخذ دُشّ في البيت إن أراد. وكانت تنوي ذلك، لكنها أحجمت للحظة مفكِّرة بدرجة الألفة بينهما، ثم نسيت أن تقول أي شيء لانشغالها بالفوضى من حولها.

لكن روبرت كينكايد اعتاد الاغتسال في ظروف أسوأ. بواسطة دلاء من مياه فاسدة في بلاد النمور، وأحياناً بواسطة مَطَرَته في الصحراء. لقد تعرّى حتى خاصرته في ساحة مزرعتها، واستعمل قميصه المتسخ لفرك جسده، وكمنشفة. أنّبت نفسها : " على الأقل منشفة، كان يمكنني أن أقدّم له منشفة " .

آلة حلاقته عكست ضوء الشمس، من على حجر بجانب المضخة، وراحت تراقبه وهو يُرغي الصابون على خديه ويحلق. ولاحظت ثانية أنه متين البنية. لم يكن ضخماً، طوله يزيد قليلاً على ست أقدام، ويميل إلى النحافة. لكن عضلات أكتافه كبيرة بالقياس إلى حجمه، وبطنه مسطحة كنصل سكين. سنوات عمره لم تكن بادية عليه، ولم يكن يبدو كالرجال المحليين الذين يتناولون مرق اللحم مع البسكويت عند الصباح .

خلال رحلة تسَوُّقها السابقة إلى مدينة (دي موين) كانت قد اشترت عطراً جديداً من نوع [أغنية الريح] وقد رشّت منه الآن على نفسها. ماذا عليها أن ترتدي؟ لم تر من المناسب أن تتزيّا كثيراً، إذ إنه مازال في ثياب عمله. لبست قميصاً أبيض بكُمّين طويلين لُفّا إلى ما تحت المرفق بقليل، وبنطال جينز نظيفاً، وخُفّاً. وتزيّنت بقرطين ذهبيين – قال ريتشارد إنها تبدو بهما امرأة ماجنة – وبسوار ذهبي. عقصت شعرها بمشبك إلى الوراء متدلّياً على ظهرها، فاستحسنت بذلك مظهرها.

حينما أتت إلى المطبخ، كان جالساً هناك مع حقيبة ظهره وثلاجته، مرتدياً قميصاً كاكيّاً نظيفاً، تمرّ عليه حمّالتان لبنطاله برتقاليّتا اللون. على الطاولة ثلاث كاميرات وخمس عدسات وعلبة جديدة من السجائر. الكاميرات الثلاث عليها علامة (نيكون Nikon). وكذلك على العدسات القصيرة، والمتوسطة، والطويلة. كانت على الأجهزة خدوش، وبعض الطعوج، إلا أنه كان يحملها بعناية، ومن وقت لآخر ينظفها إما بالمسح، وإما بالفرشاة والنفخ . رفع رأسه ناظراً إليها، فرأى ثانية وجهاً جاداً، وجهاً خجولاً. " لدي بعض البيرة في الثلاجة، أتودّين واحدة ؟ "

" نعم، لا بأس بذلك " .

أخرج زجاجتي بيرة من نوع (بَدوايزر Budweiser). وفيما كان يرفع الغطاء، رأت بوضوح صناديق بلاستيكية مع أفلام كُدّست داخلها. وكان هناك أربعة قوارير أخرى من البيرة، عدا الأخريين اللتين أخرجهما .
فتحت فرنتشيسكا دُرجاً تبحث عن فتّاحة، فقال : " لدي واحدة ". أخرج سكين الجيش السويسري من مقرّها على حزامه ونقر بها سدادة الزجاجة نقرة خبير.
ناولها زجاجة ورفع زجاجته محيِّياً " نخب الجسور المسقوفة في وقت متأخر من بعد الظهر، أو بالأحرى، في الصباحات الحمراء الدافئة ". وابتسم .
لم تقل فرنتشيسكا شيئاً، لكنها ابتسمت بلطف ورفعت زجاجتها قليلاً بتردد وارتباك . غريب ذو شخصية غريبة، ورود، عطر، بيرة وتبادل أنخاب، في يوم اثنين حار أواخر الصيف. إنه أمر كاد أن يصعب عليها التعامل معه .
" في قديم الزمان، بعد ظهر يوم من شهر أغسطس، كان هناك شخص عطش. كائناً من كان، فقد درس العطش، هيّأ بعض الأشياء، واخترع البيرة. هكذا وُجِدتْ البيرة، وانحلت المشكلة ". قال ذلك فيما كان يعمل على كاميرا وكأنه يتحدث إليها وهو يشدّ برغيّاً في أعلاها بمفك جواهريّ.

" أنا خارجة إلى الحديقة لدقيقة. سأعود حالا " .

رفع رأسه ناظراً إليها " أتحتاجين مساعدة ؟ "

هزت رأسها بالنفي ومرت أمامه، شاعرة بعينيه على وركيها، متسائلة ما إذا بقي ينظر إليها في طريقها عبر الشرفة، مخمّنة أنه فعل .
كانت محقّة. فقد راقبها. هزّ رأسه ونظر ثانية. عاين جسدها، وفكر بالذكاء الذي أيقن أنها تحوزه، متسائلاً حول الأشياء الأخرى التي أحسّ بأنها في شخصيتها. كان منجذباً إليها، وهو يصارع انجذابه .

كان الظل يعمّ الحديقة الآن. تحركت فرنتشيسكا ضمنها وفي يدها طبق قد تشقق طلاؤه. جمعت جزراً وبقدونساً، وبعض الجزر الأبيض والبصل واللفت .
حين دخلت المطبخ، لاحظت أن روبرت كان يعيد حزم حقيبة الظهر بإتقان ودقة. كل شيء قد أعيد إلى مكانه كما كان. كان قد أنهى محتوى زجاجته من البيرة، وفتح اثنتين أخريين، مع أنها لم تكن قد أنهت ما تبقى في زجاجتها. أرجعت رأسها إلى الخلف منهية الزجاجة الأولى، وناولته إياها فارغة .
سألها: " هل يمكنني المساعدة ؟ "
" يمكنك جلب البطيخ الأحمر من الشرفة، وقليلاً من البطاطا من السلة التي في الخارج ".
تحرك بخفّة جعلتها تندهش من السرعة التي ذهب بها إلى الشرفة وعاد منها. البطيخة تحت ذراعه، وأربع حبات من البطاطا في يديه. " هذا يكفي ؟ "
أومأت برأسها، وفكرت كم أنه يبدو كالشبح. وضعهم على المنضدة بجانب المجلى حيث كانت تنظف الخضروات، وعاد إلى كرسيه، وأشعل سيجارة .
" كم المدة التي ستبقى خلالها هنا؟ " سألته ذلك، فيما كانت منشغلة بالخضروات .
" لست متأكداً، لدي الوقت الكافي، فالموعد الأخير لتسليم صور الجسر بعد ثلاثة أسابيع. أظن أني سأبقى حتى أقوم بذلك على الوجه الأمثل، ربما حوالي أسبوع " .
" أين تقيم ؟ في المدينة ؟ "
" نعم. مكان صغير ذو حجرات صغيرة، يشبه إلى حد ما فندقاً صغيراً. نزلت فيه هذا الصباح. حتى إني لم أنقل إليه ملابسي بعد ".
" ذلك هو المكان الوحيد للإقامة، ماعدا مكان السيدة (كارلسون Carlson) الذي خصصته للمستأجرين. المطاعم ستكون خيبة أمل، ولاسيما لشخص له عاداتكَ في الطعام " .

" أعلم هذا. إنها قصة قديمة. لكني اعتدت عليها. هذا الوقت من السنة ليس سيئاً جداً، أستطيع أن أجد طعاماً طازجا في المخازن، وعلى المنصّات على طول الطريق. بخبز مع قليل من أشياء أخرى أجعل الأمر يفي بالغرض تقريباً. وعلى الرغم من ذلك، إنه لجميل أن أُدعى لدعوة كهذه، وأكون ممتناً " .

راحت إلى المنضدة وأدارت مذياعاً صغيراً ذا قرصين، وعلى مكبرات صوته قطعة قماش لونها قاتم. كان ثمة صوت يغني بمصاحبة الغيتار: " الوقت في جيبي، والطقس يؤازرني ". وأبقت صوت الراديو منخفضاً .

عرض مساعدته قائلاً " أنا ماهر في تقطيع الخضروات " .
" حسناً، هناك لوح تقطيع، وسكين في الدُرج الذي تحته. أنا سأُهيّئ الحساء، فلتكن الخضروات قطعاً مكعبة " .

كان واقفاًعلى بعد قدمين منها، ينظر إلى أسفل وهو يقطّع الجزر واللفت، الجزر الأبيض والبصل. فرنتشيسكا كانت تقشر البطاطا في المجلى مدركة كونها قريبة جداً من رجل غريب. لم تفكر يوماً بأنها ستقشر البطاطا وهي تحس بميل ما في أثناء ذلك .

" هل تعزف الغيتار؟ رأيت الصندوق في سيارتك " .
" قليلاً. ذلك يجعلني أشعر أن لي رفيقاً، ليس أكثر من ذلك. زوجتي كانت من أوائل مغنيات الأغاني الشعبية قبل أن تصبح تلك الموسيقا رائجة، وجعلتني أعتاد على سماعها " .

شعرت فرنتشيسكا بشيء من الانكماش عند سماعها كلمة " زوجة ". لم تدر لماذا شعرت بذلك. كان من حقه أن يكون متزوجاً، لكن ذلك، على نحو ما، لا يناسبه. لم تُرد له أن يكون متزوجاً .

" لم تستطع أن تتحمل عملي في التصوير الذي يستغرق وقتاً طويلاً وأنا غائب عنها لعدة شهور. أنا لا ألومها. لقد غادرتني منذ تسع سنوات، وطلّقتني بعد ذلك بسنة. لم نرزق بأولاد، لذا لم يكن أمر طلاقنا معقداً. أخذت معها غيتاراً واحداً، وتركت لي الـ (إلتشيابو el cheapo) " .

" هل تتواصل معك ؟ "
" لا.. بتاتاً " .

كان ذلك كل ما قاله. ولم تحثّه فرنتشيسكا ليقول المزيد. فقد ارتاحت للأمر، وأحست بأنانيتها، وتساءلت ثانية لماذا يكون عليها أن تهتم للأمر بطريقة أو بأخرى .

قال لها " لقد زرت إيطاليا مرتين. فمن أين أنتِ أصلاً ؟ "
" من نابولي " .
" لم أزرها، فقد كنت مرة في شمال إيطاليا، في مهمة تصوير على طول نهر (پوPo). ثم مرة ثانية لفترة قصيرة في صقلية ".

وهي تقطّع البطاطا، فكرت فرنتشيسكا للحظة بإيطاليا، شاعرة بروبرت كينكايد واقفاً بجانبها. تحركت السُحُب نحو الغرب فاصلة ضوء الشمس إلى شعاعات ممتدة في عدة اتجاهات. نظر خارج النافذة فوق المجلى وقال " نور الله.. شركات التقويم السنوي يُحِبّون هذا المشهد، كما تُحِبّه المجلات الدينية " .

شعرت فرنتشيسكا بحاجة للحفاظ على مواصلة محادثة ذات منحى واحد، فقالت "عملك يبدو شائقاً ".
" إنه كذلك، وأنا أحبه كثيراً. أحب السفر، وأحب أن أصنع الصور " .

لاحظت أنه استعمل كلمة "أصنع" الصور. فسألته " أنت تصنع الصور، لا تلتقطها ؟ "
" نعم، على الأقل أنا أرى الأمر هكذا. هذا هو الفرق بين ملتقطي الصور السريعة يوم الأحد، وبين شخص يقوم بذلك من أجل أن يعيش. حينما أنتهي من ذلك الجسر الذي رأيناه اليوم، فإنه لن يبدو على النحو الذي تتصورينه تماماً. سأجعله يبدو على طريقتي الخاصة، وذلك باختيار عدسة التصوير، أو زاوية الكاميرا، أو تحديد المشهد العام، أو الأكثر احتمالاً، بشيء من المزج بين كل ذلك. أنا لا آخذ الأشياء تماماً كما هي، أحاول أن أجعلها ضمن إطار يعكس شعوري الشخصي، روحي. أحاول أن أجد قصيدة شعرية في الصورة. المجلة لها أسلوبها الخاص، ومطالبها، وأنا لا أوافق دائما على ذوق المحررين، في الحقيقة غالباً لا أوافق، وذلك يضايقهم، وبالرغم من ذلك، هم الذين يقررون ما يُنشر وما لا يُنشر. أنا أقدّر أنهم يعرفون قراءهم، لكني أتمنى أن يأخذوا فُرصاً أكثر قليلاً بين حين وآخر. أقول لهم ذلك، فينزعجون. تلك هي المشكلة في كسب العيش من خلال اعتماد الشكل الفني. فالواحد يتعامل دائماً مع السوق، والأسواق عامة خُصِّصت لتناسب متوسط الأذواق. وهناك توجد لغة الأرقام. تلك هي الحقيقة كما أعتقد. لكن كما قلت، إن ذلك يمكن أن يشكل قيداً شديداً. هم يتركونني أحتفظ

بالصور التي لا يستعملونها، لذا، على الأقل، لديّ ملفاتي الخاصة من الأشياء التي أحبها. وفي وقت من الأوقات، مجلة أخرى ستأخذ منها صورة أو صورتين، أو بإمكاني أن أكتب مقالة حول مكان ما زرته، وأدعمها بصور هي أكثر جرأة مما يناسب مجلة ناشيونال جيوغرافيك .
يوماً ما سأكتب مقالة عنوانها [مزايا الهواية]، وذلك لكل أولئك الناس الذين يأملون أن يكسبوا رزقهم من خلال أعمالهم الفنية. متطلبات السوق تقتل الميول الفنية أكثر من أي شيء آخر. إنه عالم من الأمان هناك لأكثر الناس. إنهم يبغون الأمان. المجلات والمنتجون يوَفّرون لهم الأمان، التجانس، المألوف، وما هو مريح، لا يتحدّونهم .
الربح والاشتراكات، وباقي هذه الأشياء، تطغى على الفن. نحن جميعاً نندفع نحو العجلة الضخمة للتماثل .
العاملون في مجال التسويق يتكلمون دائماً حول ما يسمى بـ [المستهلكين]. لدي هذا التصور لرجل بدين قصير يرتدي شورت (برمودا Bermuda) فضفاضاً، قميص جُزر هاواي، وقبعة من القش تتدلى منها فتّاحات علب البيرة، قابضاً على حفنة من الدولارات " .

ضحكت فرنتشيسكا بهدوء، وهي تفكر بالأمان والراحة .

" لكنّي لا أتذمّر كثيراً جداً. فكما سبق أن قلت، إن السفر جيد، وأحب ملاعبة الكاميرات والتواجد في الخارج. الحقيقة هي ليست بالضبط ما بدأتْ الأغنيةُ من أجله، لكنها ليست أغنية سيئة " .

افترضت فرنتشيسكا أن ذلك هو حديث روبرت كينكايد كل يوم. أما فيما يتعلق بها فالحديث اليومي يكون في الأدب. الناس في مقاطعة ماديسون لا يتكلمون على هذا النحو حول هذه الأمور. إنما حول الطقس وأسعار المزارع، المواليد الجدد والجنازات، وحول برامج الحكومة والفرق الرياضية. لا يتكلمون حول الفن ولأحلام، ولا حول الوقائع التي أبقت الموسيقا صامتة، وحبَسَت الأحلام في صندوق .

أنهى تقطيع الخضروات. " هل من شيء آخر أقوم به ؟ "
أومأت برأسها " لا، كل شيء أصبح جاهزاً تقريباً "

جلس إلى الطاولة ثانية، يدخن، ويحتسي من البيرة بين آن وآخر. وهي راحت تطهو، وترشف من بيرتها خلال انشغالها. لقد شعرت بالكحول رغم هذا المقدار القليل. في أمسيات رأس السنة الجديدة، في قاعة المحاربين القدماء، هي وريتشارد عادة ما

يحتسون بعض الشرابات. لكن فيما عدا ذلك، لا يتعاطونها كثيراً، ونادراً ما يوجد لديهم شراباً كحولياً في المنزل، باستثناء زجاجة من البراندي كانت قد اشترتها وهي في حالة فورة غامضة من الأمل برومانسية في حياتهم الريفية. والزجاجة كانت لاتزال غير مفتوحة .

زيت نباتي، كوب ونصف الكوب من الخضروات. الطهي حتى اللون البني الفاتح. أضف طحيناً واخلط جيداً. أضف الماء، نصف ليتر منه. أضف باقي الخضروات والتوابل. اطهُ ببطء، لحوالي أربعين دقيقة .

فيما كان الطبيخ ينضج، جلست فرنتشيسكا أمامه مرة أخرى. اكتسى المطبخ جوّاً من الحميمية المعتدلة التي نشأت على نحو ما من الطهي. إعداد العشاء لغريب، وتقطيع اللفت معه على مقربة، قد أزال شيئاً من شعورها بأنه غريب، ومع زوال ذاك الشعور، كان ثمة جوّ من الحميمية.

دفع بعلبة السجائر نحوها والولاعة فوق العلبة. أخرجت سيجارة، ارتبكت بإشعال الولاعة، فشعرت بعدم براعتها. لم تكن الولاعة لتولع. ابتسم ابتسامة طفيفة، أخذ الولاعة من يدها، ونقر قرص الحجر القدّاح مرتين حتى ولعت. قرّب الولاعة منها، فأشعلت سيجارتها. عادة ما تشعر برشاقتها بين الرجال بالمقارنة معهم. بالرغم من ذلك، لم يكن الأمر كذلك أمام روبرت كينكايد .

شمس بيضاء حالت إلى قرص أحمر كبير وتمدّدت فوق حقول الذرة. عبر نافذة المطبخ رأت صقراً يطير مع نسائم المساء الباكر. أخبار الساعة السابعة، وموجز عن أحوال السوق يُسمعان من المذياع. أرسلت فرنتشيسكا نظرها عبر الطاولة المكسو سطحها بـ (فورمايكا) صفراء، نحو روبرت كينكايد الذي قطع طريقاً طويلة، قاطعاً أميالاً لا يستهان بطولها حتى صار في مطبخها .

" ها هي رائحة الطبيخ تفوح طيبة " قال ذلك مشيراً نحو الفرن. " الرائحة... هادئة " ونظر إليها.

راحت تفكر بتعبيره، سائلة نفسها "هادئة؟ هل يمكن لرائحة شيء أن تكون هادئة؟". لقد كان على حق. فبعد طبخها وشيِّها لأسرتها شتى أنواع اللحوم، فإن هذا الذي يُطبخ الآن لهو طبيخ هادئ. لم تكن ثمة مكابدة في تحضير هذه الوجبة الغذائية، سوى قطف الخضروات ربما. فالمزيج قد نضج بهدوء وفاحت رائحته بهدوء. والجو هنا في المطبخ كان هادئاً .

" إن كنت لا تمانعين، احكي لي قليلاً عن حياتك في إيطاليا ". كان قد تمدد على الكرسي، واضعاً ساقه اليمنى على اليسرى عند كاحلَيه .

أربكها الصمت، فراحت تتكلم. أخبرته عن سنوات نُموّها، ومدرستها الخاصة، عن الراهبات، عن والديها – أمها ربة منزل، ووالدها مدير مصرِف. وحدثته حول وقوفها عند الحائط المطلّ على البحر وهي مراهقة تنظر إلى السفن القادمة من جميع أنحاء العالم. حول الجنود الأمريكيين الذين أتوا فيما بعد. حول اللقاء مع ريتشارد في مقهى كانت هي وصديقاتها يحتسين فيه القهوة. كانت الحرب قد عطّلت الحياة، وتساءلا إن كانا سيتمكنان من الزواج. لم تحدثه حول علاقتها مع (نيكولو) أستاذ الفنون في الجامعة.
استمع إليها دون أن يقول شيئاً، مُومِئاً برأسه بين لحظة وأخرى دلالة على استيعابه.
عندما توقفت أخيراً عن الكلام، قال : "هل قلت لي لديكِ أطفالاً ؟ "
" نعم. مايكل في السابعة عشرة، وكارولين في السادسة عشرة. كلاهما يذهبان إلى المدرسة في وينترست. إنهما في الصف الرابع الثانوي، ولهذا هما الآن في معرض ولاية إلينوي يعرضان بقرة كارولاين .
الشيء الذي لم يكن باستطاعتي أن أتقبله، أو أتفهمه، كيف يغدقون حُباً وعناية على الحيوانات، ومن ثم يرونها تباع لكي تُذبح. وعلى الرغم من ذلك، أنا لا أجرؤ أن أصرِّح بهذا الأمر، فريتشارد وأصدقاؤه سيشنّون حملة عليّ على الفور. ثمة نوع من البرود، وتناقض قاس في ذلك العمل " .

أحسّت بالذنب لذكرها اسم ريتشارد. هي لم تفعل أي شيء، لم تفعل شيئاً البتّة. ومع ذلك أحسّت بالذنب – ذنب نشأ من احتمالات بعيدة. وتساءلت كيف عليها أن تتدبر نهاية الأمسيّة، وما إذا كانت قد أقحمت نفسها في أمر لا تستطيع التعامل معه. روبرت كينكايد ربما يغادر. لقد بدا هادئاً جداً، لطيفاً جداً، وحتى خجولاً بعض الشيء .

بينما كانا مستمرين بالحديث، لون نهار الأمسيّة راح يميل إلى الزرقة، وضباب خفيف قد لامس عشب المرج. فتح عبوتين أخريين من البيرة لكليهما، فيما طبيخ فرنتشيسكا كان ينضج على مهل. قامت وأسقطت قطعاً من كرات العجين في الماء المغلي، دارت واتكأت على المجلى شاعرة بإحساس دافئ نحو روبرت كينكايد القادم من مدينة بيلينغهام بواشنطن، آملة ألّا يغادر مبكراً.

أكل حصتين من الطبيخ بأسلوب راقٍ وهادئ، وقال لها مرتين كم كان الطبيخ ممتازاً. طعم البطيخ الأحمر كان مثالياً. البيرة كانت باردة. والمساء بدا أزرقَ. فرنتشيسكا جونسون كانت في الخامسة والأربعين، و (هانك سْنو Hank Snow) غنّى (أغنية قافلة) بثّتها إذاعة KMA من مدينة (شيناندواه Shenandoah) بولاية أيَوا .

أمسيّات قديمة.. موسيقا قصِيّة

ماذا الآن؟ فكّرت فرنتشيسكا. تناوُل العشاء انتهى. وهما جالسان.

دارى الموقف قائلاً " ما رأيك أن نخرج لنتمشى في المرج؟ فالجو ينحو نحو الهدوء ". حين وافقت، تناول حقيبة ظهر وأخرج منها كاميرا، وعلّق شريطها على كتفه. دفع كينكايد باب الشرفة الخلفية وأمسكه لها، تابعها وهي تخرج، ثم أغلقه بلطف. نازلين على الرصيف المتصدّع عبر فناء المزرعة المكسو بالحصى، ذهبا نحو العشب شرق مرآب السيارة الذي تنبعث منه ما يشبه رائحة شحم دافئ . حين وصلا إلى السور، أزاحت بيد واحدة السلك الشائك نحو الأسفل وتخطت من فوقه شاعرة بالندى على قدميها حول شرائط خُفِّها. أما هو فقد انتقل إلى الجانب الآخر من فوق السلك بسهولة.

سألها " هل تدْعين هذا مرجاً أم مرعى؟ "
" مرعى، على ما أظن. فالماشية تُبقي العشب قصيراً. احذر فضلاتها ".

القمر المكتمل تقريباً كان ظاهراً في السماء ناحية الشرق وقد بدا لازوردياً، فيما الشمس غابت لتوها تحت الأفق. على الطريق في الأسفل، مرت سيارة ذات عادم عالي الصوت، مسرعة كالصاروخ . الصبي كلارك الظهير في فريق وينترست، كان على موعد مع (جودي ليفيرنسون Judy Leverenson) .

كان قد مر وقت طويل منذ أن خرجتْ لنزهة كهذه. فبعد العشاء الذي يكون عادة في الساعة الخامسة، كان هناك متابعة للأخبار من التلفاز، ثم لبرامج المساء من قِبَل ريتشارد وأحياناً الطفلين بعد إنهائهما فروضهما المدرسية. أما فرنتشيسكا فكانت في العادة تقرأ في المطبخ – كتباً في التاريخ والشعر والقصة، تستعيرها من مكتبة

وينترست ومن نادي الكتاب المشترِكة فيه – أو تجلس في الشرفة الأمامية حينما يكون الجو ملائماً. فالتلفاز يضجرها .
في حال ناداها ريتشارد "عليك مشاهدة هذا يا فرانّي!" تدخل وتجلس معه للحظة. كان المغني (إلفيس Elvis) دائماً السبب في اجتماع كهذا. وكذلك فرقة الـ (بيتلز Beatles) في بدايات ظهورها من خلال برنامج (إد سوليفان Ed Sullivan). كان ريتشارد ينظر إلى شعورهم الطويلة ويظل هازّاً رأسه مستنكراً وغير مصدّق .

لفترة قصيرة، شعاعات حمراء تمتد عبر طرف من السماء " أنا أدعو ذلك ارتداداً ". روبرت كينكايد قال ذلك مشيراً نحو الأعلى " معظم الناس يُبعدون كاميراتهم بسرعة. فحينما تغرب الشمس، تكون هناك فترة ينتشر خلالها ضوء ولون لطيفان حقاً في السماء، لدقائق قليلة فقط، حينما تكون الشمس تحت خط الأفق ساحبة ضوءها من السماء " .

لم تعلق فرنتشيسكا بشيء، متعجبة من رجل بدا له الفرق بين المرعى والمرج أمراً مهمّاً، رجل تنبه للون السماء، كتب قليلاً من الشعر، وليس كثيراً من القصص، رجل عزف الغيتار وكسب عيشه بالصور، وحمل أدواته ضمن حقيبة ظهر. رجل بدا كالريح وتحرك كالريح، وربما قد أتى منها.

نظر إلى الأعلى، يداه في جيبيّ بنطاله، والكاميرا معلقة مقابل وركه الأيسر
" تفاحات القمر الفضية / تفاحات الشمس الذهبية " لفَظ الكلمات بصوت متوسط الجهارة، مثل ممثل محترف.
نظرت إليه وقالت :
"و. ب. يِيتس W. B. Yeats*، أغنية اينيِس Aengus** الجوّال"
" صحيح . أعماله جيدة، إنه يِيتْس. الواقعية، التدبير، الحِسّية، الجمال، والسحر. إنه يناشد إرثيَ الإيرلندي " .

لخّص روبرت بذلك أعمال الشاعر بخمس كلمات. فرنتشيسكا كانت قد عملت على شرح أعمال (ييتس) لطلابها في وينترست، لكن معظمهم لم يستوعب تلك الأعمال.

---

* (ويليام بَتلر ييتس) شاعر وكاتب مسرحي إيرلندي. (المترجم)

** شخصية أسطورية في الميثولوجيا الإيرلندية. (المترجم)

أحد الأسباب التي جعلتها تختار (ييتس) هو ما قاله روبرت كينكايد للتو، ظناً منها أن كل تلك الخواص ستروق للمراهقين الذين كانت غددهم تتدفق بعنف كفرقة موسيقية لمدرسة ثانوية عند استراحة ما بين شوطي مبارة كرة قدم. لكن تحاملهم على الشعر الذي التقطوه، وعلى شكله – كنتاج يمثل ذكورة متزعزعة – كان كبيراً، حتى (ييتس) لا يمكن أن يتغاضى عنه .

تذكرتْ الطالب (ماثيو كلارك Matthew Clark) ينظر إلى زميله بجانبه، ومن ثم يشكل يديه كما لو أنه يضعهما على ثديي امرأة، حين قرأتْ : " تفاحات الشمس الذهبية ". لقد ضحكا ضحكة مكبوتة، والفتيات الجالسات خلفهما تملّكهن الحياء .

سوف يعيشون مع تلك المواقف طوال حياتهم. وذاك ما أثبط همّتها حين أيقنت ذلك، وأحسّت أنها عرضة للشبهات ووحيدة على الرغم من المودة الظاهرية التي يبديها الناس المحيطون بها. الشعراء ليس مرحّباً بهم هنا. الناس في مقاطعة ماديسون، لكي يعوّضوا شعورهم الذاتي بالدونية الثقافية، أحبّوا أن يقولوا " إنه مكان جيد لتنشئة الأولاد ". وهي شعرت دائماً وكأنها تردُّ متسائلة " لكن هل هو مكان جيد لتنشئة الراشدين؟ " .

بعفوية دونما أي تخطيط، مشيا ببطء نحو المرعى بضع مئات من الياردات، دارا حوله، وأقفلا راجعين إلى المنزل. داهمتهما الظلمة عندما اجتازا السور دافعاً لها السلك للأسفل في هذه المرة .

لقد تذكرتْ البراندي " لدي بعض البراندي. أم تُفضّل بعضاً من القهوة ؟ " " هل خيار الاثنين متاح؟ " نطق كلماته في الظلمة. وعرفت أنه كان يبتسم . حين وصلا إلى الدائرة المرتسمة من ضوء الساحة على العشب والحصى، أجابت "بالطبع" وهي تسمع صوت شيء ما في صوتها قد أقلقها. كان صوت ضحكة سهلة في مقاهي نابولي .

كان صعباً عليها أن تجد كوبين من دون أن يكون عليهما أثر لكسر، رغم أنها كانت متأكدة من أن الأكواب المصدوعة هي جزء من حياته. لكنها في هذه المرة أرادت كوبين دونما شائبة عليهما. كأسان من كؤوس البراندي في مؤخرة الخزانة مقلوبان رأسا على عقب - مثل البراندي - لم يكونا مستعمَلين. كان عليها أن تقف على رؤوس أصابعها لتصل إليهما، وكانت على علم بخِفَيها المبللين وبأن بنطالها الجينز لصيق بمؤخرتها .

جلس على الكرسي ذاته الذي جلس عليه قبلا، وراح ينظر إليها. الأساليب القديمة.. الأساليب القديمة تنبعث فيه ثانية. تساءل كيف سيكون تأثير لمسته لشعرها، كيف سيتلقى ظهرُها يدَه تنساب عليه، كيف سيكون شعورها وجسده يعلو جسدها. الأساليب القديمة تقاوم ضد كل ما تم تَعَلُّمُه، ضد مفهوم الاحتشام المنطبع في الأذهان لقرون من الثقافة، ضد القواعد الصعبة لرجل متحضر. لقد حاول أن يفكر بشيء آخر، بالتصوير، أو بالطريق، أو بالجسور المسقوفة.. بأي شيء سوى ما بدت عليه الآن، لكنه لم يفلح. وتساءل ثانية كيف سيكون شعورها وهو يلمس بشرتها، وهو يضع بطنه على بطنها. الأسئلة لا تنتهي ودائماً هي ذاتها. لعن الله الأساليب القديمة، تُصارع لتطفو على السطح. لقد دحر تلك الأساليب ثانية، دفعها إلى الأسفل، أشعل سيجارة، وتنفس بعمق .

كانت تشعر بعينيه عليها باستمرار على الرغم من أنه كان ينظر إليها بحذر، على نحو غير مباشر، ودونما تطفل. كانت تعلم أنه يعلم بأن البراندي لم يسبق أن صُبّ في تلك الكؤوس. وقد عرفت أيضاً أنه بحسّه المأساويّ كرجل إيرلنديّ الأصل، قد أحس بشيء من فراغ كهذا. لا شيء يدعو للأسف، فهو لم يكن يعاني من هذا الفراغ. ربما يشعر بالحزن، وهي تكاد تسمع عقله يشكّل الكلمات :

الزجاجة ليست مفتوحة،

والكؤوس فارغة،

لقد تمكّنَتْ من أن تعثر عليها،

في مكان ما شمال نهر (ميدل ريفرMiddle river)،

في أيَوا

شاهدتُها بعينيّ اللتين شاهَدتا أمازون شعب جيفارو

وطريقَ الحرير

وغبار القافلة يتصاعد خلفي،

واصلاً إلى فضاءات عذراوات من سماء آسيا .

عندما أزاحت فرنتشيسكا ختم خمر أيَوا عن سدادة زجاجة البراندي، نظرت إلى أظافرها وتمنّت لو كانت أطول ومعتنى بها على نحو أفضل. لكن حياة المزرعة لا تسمح بإطالة الأظافر. لكن حتى الآن لم يكن ذلك أمراً ذا بال.
براندي، وكأسان على الطاولة. فيما كانت تحضّر القهوة، فتحت الزجاجة وصبّت الكمية الصحيحة تماماً في كل من الكأسين. فروبرت كينكايد كان قد خبِر قبلاً تناول البراندي بعد تناول العشاء .
تساءلتْ : كم من المطابخ، كم من المطاعم الجيدة، كم من غرف المعيشة بأضواء لطيفة، كان قد خبر خلالها تلك المهنة البسيطة. كم مجموعة من الأظافر الطويلة كان قد شاهدها بدقّة تشير نحوه من سيقان كؤوس البراندي ، كم زوجاً من العيون المستديرة الزرقاء، والبيضوية بنيّة اللون قد نظرت إليه خلال أمسيات غربته، فيما كانت المراكب الشراعية تتأرجح راسية بعيداً عن الشاطئ والماء يصفع أرصفة الموانئ القديمة ؟

ضوء المطبخ فوقهما كان ساطعاً جداً غير ملائم لشرب قهوة وبراندي. فرنتشيسكا جونسون زوجة ريتشارد جونسون كانت لتتركه مضاءً . أما فرنتشيسكا جونسون، التي تمشي بين العشب بعد العشاء تسترجع أحلام الصبا، كانت لتطفئه. إن شمعة واحدة كانت تفي بالغرض، لكن ذلك سيكون أمراً مبالغاً فيه، وربما يفهم الأمر خطأً. أشعلت الضوء الصغير فوق مجلى المطبخ، وأطفأت الضوء المُنار فوقهما. مازال الوضع غير مثاليّ، لكنه أفضل الآن .
رفع كأسه حتى مستوى الكتف وقرّبه منها " نخب الأمسيات العتيقة والموسيقا القصيّة ". تلك الكلمات، لسبب ما، جعلتها تأخذ نفَساً قصيراً وسريعاً. لكنها لامست كأسها بكأسه، ومع أنها أرادت أن تقول "نخب الأمسيات العتيقة، والموسيقا القصيّة" إلا أنها ابتسمت قليلا فقط .
دخنا السجائر، دون أن يقولا شيئاً وهما يشربان البراندي والقهوة. طائر الذّيال صاح من الحقول. الكلب جاك نبح مرتين في الفِناء الخارجي. حاول البعوض أن ينفذ من شبك النافذة قرب الطاولة، فراشة واحدة محتارة، إلا أنها متأكدة من غريزتها، كان ضوء المجلى يستحثّها.

كان الجو مايزال حاراً، لا نسمة، لكن هناك شيء من رطوبة الآن. روبرت كينكايد كان يتعرق قليلاً، الزرّان العلويان من قميصه كانا غير مزرّرين. ولم يكن ينظر إليها مباشرة، إلا أنها أحست أنها ضمن محيط رؤياه ولو أنه بدا محدِّقاً نحو خارج النافذة. بوضعية

جلسته، تمكنت من رؤية أعلى صدره من خلال الزرين غير المشبوكين في قميصه، وقطرات من الرطوبة ملتصقة ببشرته .
أحسّت فرنتشيسكا بمشاعر جيدة، مشاعر قديمة، مشاعر شِعر وموسيقا. فكّرت أن الوقت يحين لذهابه. إنها التاسعة واثنتان وخمسون دقيقة كما تشير الساعة المعلقة فوق الثلاجة. (فارون يانغ Faron Young) ينبعث صوت غنائه من الراديو. إنه لحن ظهر قبل سنوات قليلة : [ضريح القديسة سيسيليا Cecilia] شهيدة رومانية في القرن الثالث للميلاد. تذكرت فرنتشيسكا ذلك، إنها قديسة راعية للموسيقا والمكفوفين.
كأسه فرغت. وما إن أدار رأسه عن النافذة حتى التقطت فرنتشيسكا زجاجة البراندي من عنقها وأومأت بها نحو كأسه الفارغة. أومأ برأسه أن لا رغبة له بالمزيد، وقال " جسر روزمان عند الفجر، يَحسُن بي أن أذهب " .

شعرت بالارتياح. لكنها غاصت في خيبة أمل. احتارت في أمرها. وقالت تحدث نفسها: نعم، اذهب أرجوك . خذ لك مزيداً من البراندي، ابقَ. اذهب. أما (فارون يانغ) فلم يكن مهتماً بمشاعرها. ولا الفراشة فوق المجلى. لم تكن متأكدة ما الذي يفكر به روبرت كينكايد .
نهض واقفاً، علّق حقيبة ظهر واحدة على كتفه الأيسر، وضع الأخرى على ثلاجته. دارت حول الطاولة. تحركت يده نحوها، فأخذتها. " كل الشكر لأمسيتك، للعشاء، وللنزهة. كل ذلك كان لطيفاً. أنت إنسانة طيبة، فرنتشيسكا. أبقي زجاجة البراندي عند مقدمة الخزانة، إذ من الممكن أن تفي بالغرض بعد فترة " .
لقد عرف، ما فكرّتْ به تماماً. لكنها لم تنزعج من كلماته. كان يتكلم حول الرومانسية، وقد عبر عنها بأفضل طريقة ممكنة. كان بإمكانها أن تتحدث عن نعومة لغته، عن الطريقة التي قال بها كلماته. ما لم تكن تعلمه، أنه أراد أن يصرخ في جدران المطبخ، ناقشاً كلماته عليها: " لأجل المسيح، يا ريتشارد جونسون، هل أنت مغفّل كبير كما أعتقد جازماً ؟! ".
تبعته إلى سيارته ووقفت بجانبه فيما كان يضع أغراضه داخلها. أتى الكلب عبر الفناء وراح يشم ما حول السيارة. "جاك.. تعال هنا " همست بحدّة، فأقبل الكلب وجلس بجانبها لاهثاً.
واقفاً بجانب باب سيارته لينظر إلى وجهها لحظة، قال لها " وداعاً، اعتني بنفسك ". ثم بحركة واحدة كان خلف المقود مغلقاً الباب خلفه. حاول تدوير المحرك القديم عدة مرات، داس على دواسة البنزين فقرقع المحرك دائراً. انحنى نحو خارج النافذة بابتسامة " أظنّ أنها بحاجة لمعايرة " .

عشّق السرعة، رجع إلى الخلف، عشّق السرعة ثانية، وسار عبر الفناء تحت الضوء. وقبيل أن يصل إلى المنطقة المظلمة من الممر، خرجت يده اليسرى من النافذة ولوحت لها . هي أيضا لوحت، مع علمها أنه لا يرى ذلك .
فيما كانت السيارة تجتاز الممر، مشت فرنتشيسكا لتقف تحت الظل وهي تنظر إلى الضوءين الأحمرين في مؤخرة السيارة يرتفعان ويهبطان جرّاء وعورة الطريق. التفّ روبرت كينكايد إلى اليسار على الطريق الرئيسية نحو وينترسِت، فيما برقُ حَرٍّ ومَض في سماء الصيف، و(جاك) قد هجع إلى الشرفة الخلفية .

بعد مغادرته، وقفت فرنتشيسكا أمام مرآة الخزانة، عارية. وركاها أصبحا أعرض قليلاً بسبب حبَلِها بولديها، نهداها مايزالان جميلين ومتينين، ليسا كبيرين جداً، ولا صغيرين جداً، والبطن قد تكور قليلاً. لم تستطع أن ترى ساقيها في المرآة، لكنها كانت تعلم أنهما مازالتا جيدتين. كان يجدر بها أن تعتاد إزالة الشعر عنهما أكثر مما كانت تفعل، لكن لم تكن تكترث كثيراً للأمر .

ريتشارد لم يكن مهتماً بأمر الجنس إلا أحياناً، كل شهرين تقريباً، وكان الأمر يتم بسرعة، على نحو بدائي ودونما عاطفة، ولم يكن يهتم كثيراً بالتعطر أو الحلاقة أو أي شيء من هذا القبيل. كان من السهل أن يناله شيء من الاتساخ .
كانت بالنسبة له شريك عمل أكثر من أي شيء آخر. بعضٌ منها كان يُقدّر ذلك. لكن شخصا آخر لا يني يلحّ في داخلها يريدها أن تستحم وتتعطر... وتكون فاتنة، وتُحْمل بعيداً، وتُعرّى بقوة تشعر بها، على ألا تكون قوة فظّة، وإن يكن ذلك شعوراً باهتاً في ذهنها .

ارتدت ملابسها ثانية، وجلست إلى طاولة المطبخ تكتب على نصف صفحة من ورقة عادية. تبعها (جاك) إلى الخارج نحو (البيك أب فورد) وقفز داخلها حين فتحت الباب. ذهب إلى المقعد المجاور لمقعد القيادة، وأخرج رأسه من النافذة فيما كانت هي ترجع بها لتخرجها من تحت السقيفة، يحوّل نظره إليها ثم يعود لينظر إلى خارج النافذة مرة أخرى بينما كانت تقود (البيك أب) مجتازة الممر. وانعطفت يميناً نحو طريق المقاطعة.
جسر روزمان كان معتماً. لكن (جاك) قفز خارجاً من السيارة، يستطلع أشياء هناك، فيما هي أتت بمصباح يدوي من السيارة. ثبّتت الورقة على الجانب الأيسر من مدخل الجسر، وعادت إلى منزلها.

جُسور يوم الثلاثاء

قاد روبرت كينكايد سيارته ماراً بصندوق بريد ريتشارد جونسون، وهو يتناوب بين مضغ مضيغة (ميلكي وي Milky Way) وأخْذِ قضمات من تفاحة، حاشراً كوب القهوة بين أشيائه على المقعد كي لا ينسكب. نظر عالياً إلى البيت الأبيض منتصباً تحت ضوء خفيف لقمر يكاد يأفل، ذلك حين مرّ وهزّ رأسه لغباء الرجال، بعض الرجال، بل معظم الرجال. إذ بإمكانهم على الأقل شرب البراندي دون أن يَصْفقوا الباب الشبكي في طريقهم وهم خارجون .

سمعتْ فرنتشيسكا مرور سيارة (البيك أب) غير المعيّرة. كانت في فراشها تنام عارية للمرة الأولى بحسب ما تذكر. يمكنها أن تتخيل كينكايد: شعره يطير ملتفاً بالهواء عبر نافذة السيارة، يد على المقود، والأخرى تمسك بسيجارة . أصاخت السمع حتى تلاشى صوت الإطارات نحو جسر روزمان. وبدأت تردد كلمات قصيدة الشاعر (ييتس) في ذهنها: " ذهبتُ إلى أيكة البندق، لأن ناراً كانت في رأسي...." تلاوة القصيدة وقعت في نفسها ما بين معلمة مدرسة، ومتضرّعة .

رَكَن السيارة بعيداً خلف الجسر كي لا تظهر في الصور. من المكان الصغير خلف المقعد، تناول زوجيّ حذاء مطاطي بساق طويلة، وجلس على حافة الصعود الجانبية ليفكّ رباط حذائه الجلدي، ويلبس الحذاء الآخر. حقيبة ظهر واحدة حِزاماها على كتفيه، مسند ثلاثي القوائم معلّق على كتفه الأيسر بحزامه الجلدي، الحقيبة الأخرى في يده اليمنى، آخذاً طريقه إلى أسفل منحدر الضفة نحو النهر . كانت غايته وضعَ الجسر في زاوية تصوير تُضفي على الصورة تشكيلاً خاصاً، مع إظهار جانب من النهر في آن معاً، وإغفال ما هو مكتوب على الجدران قرب المدخل. الأسلاك الهاتفية كانت مشكلة أيضاً، لكن ذلك يمكن تفاديه بتأطير مدروس. أخرج آلة التصوير (نيكون) المزودة بفيلم كوداك كروم وثبتها على الحامل ثلاثي القوائم. الكاميرا كانت مزودة بعدسة ٢٤ ميليمتر، فاستبدل بها عدسته المفضلة ١٠٥ ميليمتر. الضوء ناحية الشرق فضيّ الآن، وقد بدأ بتجارب تشكيله للصورة. نقل الحامل مسافة قدمين يساراً، أعاد تثبيت القوائم في الأرض الموحلة بجانب النهر. ترك حزام الكاميرا ملفوفاً على معصمه الأيسر، فذلك ما يقوم به دائماً حين يعمل حول الماء، فقد شاهد كاميرات كثيرة تسقط في الماء حين يتلقى الحامل صدمة .

اللون الأحمر آخذ في الصعود، السماء تسطع. يخفض الكاميرا ست بوصات، يعدّل قوائم الحامل. مازال الموضع غير صحيح. مسافة قدم أخرى إلى اليسار. يعيد تعديل القوائم. يحدد مستوى الكاميرا على رأس الحامل. يضبط فتحة العدسة علىf/8 . يقدّر عمق المجال، يزيده إلى الحد الأعلى بتقنية البؤرة العظمى. يثبت سلك كبسة التقاط الصورة على زر مصراع العدسة. الشمس أربعون في المئة فوق خط الأفق، الدهان القديم على الجسر يتحول إلى أحمر فاتح، تماماً كما أراد .
يُخرج مقياس الضوء من جيب الصدر الأيسر. يضبطه علىf/8 . لقطة بسرعة ثانية واحدة، فالفيلم كوداك كروم سيلتقط الصورة جيداً بتلك السرعة القصوى. ينظر عبر عين الكاميرا. يعدّل مستوى الكاميرا على أفضل ما يمكن. ضغط مكبس محرر مصراع العدسة وانتظر ثانية واحدة ليغلق. ما إن ضغط مصراع العدسة حتى بدا لعينه شيء ما. نظر ثانية عبر عين الكاميرا ودمدم متذمراً " ما هذا (الجحيم) المعلّق قرب مدخل الجسر؟ إنها قطعة ورق. لم تكن هناك البارحة ".
حامل الكاميرا مازال ثابتاً. ركض إلى أعلى الضفة والشمس تسير بسرعة خلفه. الورقة مثبتة بإتقان على الجسر. نزعها من مكانها. وضع المسمار والورقة في جيب صُدرته. رجع نحو الضفة ونزل منها إلى خلف الكاميرا. أصبحت الشمس أعلى ستين في المئة. وهو يتنفس بصعوبة من عدْوه السريع، التقط الصورة ثانية. كرر ذلك مرتين للحصول على نسخ مطابقة. ليس ثمة من ريح، والعشب ساكن. التقط ثلاث مرات بثانيتين، وثلاثاً أخرى بنصف ثانية كضمان. ضبط العدسة على f/16. وكرر كامل العملية. حمل الحامل والكاميرا إلى منتصف النهر. نصب عدته، والطمي من جراء خطواته ينقذف بعيداً خلفه. التقط بالتسلسل ذاته كرّة أخرى. بدّل بَكَرة الفيلم. غير العدسات. فتح عدسة ٢٤ ميليمتر، وضغط عدسة ١٠٥ ميليمتر في جيب. اقترب أكثر من الجسر، خائضاً ضد التيار. عدّل، حدد المستوى، ضبط الضوء، والتقط ثلاث لقطات، وأخذ عدة لقطات كضمان . جعل الكاميرا بوضع عمودي، أعاد التهيئة، والتقط ثانية. التسلسل ذاته، الطريقة ذاتها. لم يقم أبدا بأية حركة اعتباطية. كل شيء تم بخبرة، كل شيء تم لسبب، الاحتمالات حُسبت على نحو وافٍ وبحِرَفيّة .
صار أعلى الضفة، عبَر الجسر، راكضاً مع معداته، مسابقاً الشمس. الآن وقت المهمة العسيرة. اختطف الكاميرا الثانية ذات الفيلم الأكثر حساسية، علّق الكاميرتين حول رقبته، تسلق شجرة خلف الجسر. كُشِطت ذراعه بلحاء الشجرة، تمتم: " اللعنة " تابع متسلقاً. صار عالياً الآن، ينظر للأسفل إلى الجسر من جانب يتيح له رؤية ماء النهر عاكساً ضوء الشمس . استعمل مقياس كثافة الضوء لعزل سقف الجسر، ثم

عزل الجانب الظليل منه. أخذ في اعتباره تأثير الماء. ضبط الكاميرا لتحدد كثافة الضوء الأمثل. أخذ تسع لقطات، الكاميرا ساكنة على صُدرته ومحشورة بين انفراج غصنين من الشجرة. يبدل الكاميرات. يستعمل أفلاما سريعة الحساسية. ويلتقط دستة أخرى من اللقطات . نزل من على الشجرة ، ثم إلى أسفل الضفة. ضبط حامل الكاميرا، عبّأ الكاميرا بفيلم كوداك كروم، والتقط صوراً مشابهة للسلسة الأولى لكن هذه المرة من الجهة المقابلة للنهر. سحب كاميرا ثالثة من الحقيبة. إنها الكاميرا القديمة SP المزودة بجهاز تحديد المدى. حان وقت العمل بالأبيض والأسود. الضوء على الجسر يتغير ثانية بعد ثانية . بعد عشرين دقيقة مكثفة من النوع الذي لا يفهمه سوى الجنود، وأطباء الجراحة، والمصورين، وضع روبرت كينكايد حقيبة ظهره في السيارة واتجه راجعاً من الطريق الذي أتى منه. كان يلزمه من الوقت خمس عشرة دقيقة ليصل إلى جسر (هوغباك Hogback) في شمالي غرب البلدة، إذ يمكنه التقاط بعض الصور هناك إن هو أسرع في سيره .

الغبار يتطاير، سيجارته مشتعلة، السيارة تثِب وهي تسير، مرّ في طريقه بالمنزل الخشبي الأبيض متجهاً نحو الشمال، كما مرّ بصندوق بريد ريتشارد جونسون. فكّر : لا إشارة منها. ما الذي توقعتَه؟ إنها متزوجة، وهي بخير. وأنت بخير. من بحاجة إلى تلك الأنواع من التعقيدات؟ كانت أمسية لطيفة مع عشاء جيد، وامرأة ذات حسن. دع الأمر عند هذا الحد. يا إلهي، إنها حلوة، ومع ذلك، ثمة شيء ما فيها، شيء ما. يصعب عليّ أن أُشيح بنظري عنها .

فرنتشيسكا كانت في الحظيرة تقوم بعملها اليومي حين مرّ بمكانها مسرعاً. الضجة التي تثيرها الماشية حجبت أي صوت آتٍ من الطريق. أما روبرت كينكايد فقد اتجه قاصداً جسر (هوغباك) يسابق السنين، ويطارد الضوء .

سارت الأمور على مايرام عند الجسر الثاني. كان الجسر منصوباً في وادٍ والضباب مازال يتكاثف من حوله عند وصول روبرت إليه. العدسة (٣٠٠ ميليمتر) أعطته شمساً ساطعة في الجزء العلوي الأيسر من الإطار، وما تبقى أتاح له أخذ طريق الصخر الأبيض الملتف المؤدي إلى الجسر، وأخْذ الجسر ذاته .

ثم إذا بمزارع يقود مجموعة خيول بلجيكية بلون بُنِيّ فاتح، تَجُرّ عربة على طول الطريق الأبيض. واحد من آخر الصِبْية قديمي الطراز، اعتقد كينكايد أنه يبتسم، ظهروا جميعاً في عين الكاميرا. لقد تذكّر حينما جاءه أناس جيدون وتمكنوا من رؤية ما ستكون عليه الطبعة النهائية فيما كان يعمل. في اللقطات العمودية قد ترك حيّزا من سماء صاحية حيث يمكن طباعة عنوان .

حينما طوى حامله عند الساعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة، شعر بالارتياح. إن للعمل الصباحي بعض المحبين. الصور الريفية لا جديد فيها لكنها جميلة ومرغوبة . صورة المُزارِع والخيول يمكن أن تكون صورة غلاف، ذاك هو السبب الذي جعله يترك فراغاً في أعلى الإطار، حيّزاً للطباعة، أو للشعار. محرّروا المجلّات يحبّون هذا الأسلوب من الحِرفية الواعية .

لقد استهلك جميع أو قسماً من سبع بكرات من أشرطة التصوير، أفرغ الكاميرات الثلاث، ومد يده إلى الجيب السفلي الأيسر من صُدرته ليخرج أربع بكرات أخرى .

" اللعنة! " مسمار كبْس وخَز سبّابته. لقد نسي أنه كان قد أسقطه في جيبه حينما نزع قصاصة الورق من على جسر روزمان. في الحقيقة، لقد نسي وجود الورقة في جيبه.

أخرجها وفتحها، وقرأ :

" إن كنت تود تناول العشاء ثانية حين [العُث الأبيض في الجو]* مُرّ بي الليلة بعد إنهاء عملك، في أي وقت تشاء ".

لم يستطع إخفاء ابتسامة وهو يتمثل فرنتشيسكا جونسون مع ورقتها ومسمار الكبس، تقود سيارتها إلى الجسر في الظلمة. خلال خمس دقائق رجع إلى البلدة.

فيما كان عامل محطة الوقود يعبئ خزان السيارة، ويفحص مستوى الزيت "أقل من نصف غالون"، استخدم كينكايد هاتف المحطة ذا الحصّالة. دليل الهاتف الرقيق كان مُتّسخاً جرّاء تقليب صفحاته بأيادي العاملين في محطة التعبئة. كان ثمة سطران باسم " ر. جونسون " لكن أحدهما كان ذا عنوان بمدينة. أدار قرص الهاتف على الرقم الريفي وانتظر. كانت فرنتشيسكا تطعم الكلب على الشرفة الخلفية حينما رن الهاتف في المطبخ. التقطت السماعة عند الرنة الثانية :

" بيت جونسون "

" هاي، أنا روبرت كينكايد "

اختلجت مشاعرها ثانية، تماماً كما شعرت البارحة. وخزة من شيء بدأ في صدرها وقفز إلى معدتها.

" لقيت قصاصتكِ، وما جاء فيها، (و. ب. ييتس W.B. Yeats) كَرَسول. أنا أقبل

---

* بيت من قصيدة الشاعر ييتس " أغنية اينِس Aengus الجوّال" والتي يمكن اعتبارها استعارة تفيد موضوع هذه الرواية. تحكي القصيدة حول جوّال اصطاد مرّة سمكة سلمون فضّية من نهر، تحوّلت إلى فتاة برّاقة واختفت. وبعد أن أضحى في سن الشيخوخة، ولم يعد قادراً على التجوال، أراد أن يجدها ثانية فيما تبقى له من العمر وهو ينتقي التفّاحات الفضية والذهبية من القمر والشمس. (المترجم)

الدعوة، لكن ربما أتأخر. الطقس جميل جداً، لذلك أخطط لتصوير – دعينا نتذكر، ما اسمه؟ – جسر (سيدر Cedar) هذا المساء. ربما ستكون الساعة بعد التاسعة قبل أن أنتهي. بعد ذلك علي أن أنظف نفسي قليلاً. لذلك يمكن أن لا أصل قبل التاسعة والنصف أو العاشرة. هل هذا يناسبك؟ "
لا، لم يكن ذلك مناسباً. هي لم تُرِد أن تنتظر طويلاً، لكنها لم تقل سوى " أوه طبعاً، أنجز عملك، فذلك هو المهم. سأجهّز شيئاً ما يَسهُل تسخينه حينما تصل ".
ثم أضاف " إن كنت تريدين أن تأتي معي بينما أنا أصور، فذلك حسن، لن يزعجني. يمكنني أن أتوقف عندك لآخذك حوالي الساعة الخامسة والنصف " .

فكرت فرنتشيسكا بالمشكلة. لقد أرادت الذهاب معه، لكن ماذا إن رآها شخص ما؟ ما الذي يمكن أن تقوله لريتشارد إن هو اكتشف الأمر؟
جسر (سيدر) قائم على بعد خمسين ياردة من منبع النهر، موازياً الطريق الجديد، وهو من الإسمنت، فهي لن تكون ظاهرة للعيان. أم هي ستكون؟ في أقل من ثانيتين، قررت: " نعم، يسعدني ذلك. لكن سأقود سيارتي وأقابلكَ هناك . في أي وقت؟ "
" حوالي السادسة. سأراكِ حينئذ. أوكي؟ باي " .

أمضى بقية النهار في مكتب الجريدة المحلّية يقلّب بين الإصدارات القديمة. كانت بلدة جميلة، ذات ساحة جميلة لمبنى المحكمة. جلس هناك على مقعد في الظل وقت الغداء مع كيس صغير يحوي فاكهة وخبزاً، مع زجاجة (كوكا) من المقهى المطل على الشارع .
حين مشى في المقهى وطلب زجاجة (كوكا) ليأخذها معه، كان الوقت بُعَيد الظهر. وكما في حانة قديمة في براري غرب أمريكا، إبان وجود حاملي المسدسات المحليين، فإن الإنشغال بالأحاديث قد توقف للحظة فيما أخذ الجميع ينظرون إليه. كان يكره ذلك، ويشعر بالخجل، لكن ذلك كان إجراء اعتياديا في البلدات الصغيرة. إنه شخص جديد ! شخص غير مألوف ! من يكون ؟ ماذا يفعل هنا ؟
" قال أحدهم إنه مصور، إنهم رأوه هذا الصباح بجانب جسر (هوغباك) ومعه كل أنواع الكاميرات " .
" ثمة علامة على سيارته تقول إنه من خارج غرب واشنطن" .
" لقد تواجد في مكتب الصحافة طيلة الصباح. (جِم Jim) يقول إنه يبحث في الصحف عن معلومات تتعلق بالجسور المسقوفة " .
" نعم، الشاب (فيشر Fischer) في محطة (تِكْسَكو Texaco) للوقود قال إنه توقف

عنده البارحة وسأله عن الجهات نحو جميع الجسور المسقوفة " .
" على أية حال، ما الذي يريد معرفته عن تلك الجسور؟ "
" ولِمَ يكون في العالم أحد يريد التقاط صور لها؟ فجميعها آيلة إلى السقوط على حالها السيّئة " .
" مؤكَّداً هو ذو شعر طويل. يبدو وكأنه واحد منهم، من جماعة الـ (خنافس Beatles)، أو .. ما هو ذاك الذي يدعونهم به آخرون؟ (هيبّيز Hippies)، أليس كذلك؟ ". أدى هذا لضحك الجالسين على مقربة من القائل .

أخذ كينكايد الـ (كوكا) وغادر، وظلّت الأعين عليه وهو خارج من الباب. ربما قد أخطأ بدعوة فرنتشيسكا، لكن ذلك لرغبتها، ليس لرغبته. إن رآها أحد ما عند جسر (سيدر)، فالكلام سيصدم رواد المقهى صباح اليوم التالي وقت الإفطار، وسينقله الشاب (فيشر) في محطة (تكْسَكو) بعد تسلمه النقود من عابري السبيل. وربما على نحو أسرع من ذلك .
لقد تعلّم ألّا يستخف بانتشار الأخبار التافهة في البلدات الصغيرة. مليونان من الأطفال يمكن أن يموتوا من الجوع في السودان ولا يتسبب ذلك بإيذاء المشاعر. لكن زوجة ريتشارد جونسون شوهدت مع غريب ذي شعر طويل، فالآن تلكم هي الأخبار! الأخبار التي ستروج، الأخبار التي ستُمضغ، الأخبار الشهوانية الغامضة ستدور في عقول الذين سمعوها، وهي فقط التي ستموج في مشاعرهم تلك السنة.

أنهى طعام غدائه ومشى متجهاً إلى الهاتف العمومي عند موقف سيارات دار المحكمة. أدار رقمها، فأجابت لاهثة على نحو طفيف عند الرنة الثالثة.
" مرحباً، أنا روبرت كينكايد ثانية " .

انقبضت معدتها على الفور لأنها ظنت أنه لن يستطيع المجيء، لقد اتصل ليقول ذلك.

" دعيني أكن صريحاً. إن كان خروجك معي الليلة سيسبب لك مشكلة، ويثير فضول أناس بلدة صغيرة، فأنت لست مجبرة على المجيء. صراحة، أنا لا أهتم كثيراً بما يفكرون به عنّي هنا، وبطريقة أو بأخرى، سأمرّ عليك فيما بعد. ما أحاول قوله هو أنه ربما أكون قد أخطأت بدعوتك، لذا لا تشعري، بأي حال من الأحوال، أنك مجبرة على المجيء، رغم أني أحب أن تأتي معي " .

كانت تفكر بذلك تماماً منذ حديثهما سابقاً. لكنها قد رست على قرار : "لا، أنا أحب أن أراك وأنت تقوم بعملك. أنا لست قلقة على ما يمكن أن يقوله الناس".

كانت قلقة، لكن شيئاً ما بداخلها كان قد سيطر عليها، شيئاً ما يدفعها للمخاطرة. مهما كلف الأمر، فهي ستذهب إلى جسر (سيدر) .

" عظيم. أردت فقط أن أتأكد . أراكِ لاحقا "

" حسناً ".

كان حسّاساً، لكنها أيقنت ذلك الآن .

في الساعة الرابعة توقف عند فندقه، وغسل بعض ملابسه في المغسلة، ارتدى قميصاً نظيفاً، وقذف آخَرَ في السيارة مع بنطالين من الكاكي وخُفٍّ بُنّيّ كان قد اشتراه من الهند عام ١٩٦٢ حينما كان يُعِدّ قصة عن سكة الحديد التي نجا من عليها رضيع، وصولاً إلى بلدة (دارجيلنغ Darjeeling) في الهند . اشترى من حانة رزمتين في كل منهما ست زجاجات بيرة من نوع (بَدوايز). ثمانٍ منها فقط يمكن ترتيبها حول فيلمه بالثلاجة .

الجو حار، حقيقة حار مرة أخرى. شمس أواخر بعد الظهيرة في (أيَوا) كوّمت نفسها فوق ما سبق من أذاها الذي تشرّبه الإسمنت والقرميد والأرض. ثم راحت تغيب .

الحانة كانت معتمة وجوّها بارد على نحو يُحتمل، وبابها الأمامي مفتوح، ومراوح كبيرة تتدلى من السقف، وأخرى على حامل قرب الباب ذات طنين بقدرة حوالي مئة وخمس (ديسيبلات decibles). على نحو ما، ضجيج المراوح، والبيرة السيئة والدخان، ودويّ الفونوغراف الآلي، والوجوه شبه العدائية تحدق به على طول (البار)، جعلته يحسّ الجو أكثر حرارة مما هو عليه حقيقة . في الخارج على الطريق، أشعة الشمس محرقة، ففكّر بالشلّالات وأشجار التنّوب، والأنسام على طول مضيق (سان خوان دي فوكا San Juan de Fuca) قرب شاطئ رأس (كيداكا Kydaka) بواشنطن .

رغم ذلك، فرنتشيسكا جونسون بدت هادئة. كانت متكئة على مِصدم سيارتها البيك أب فورد، حيث كانت قد ركنتها خلف بعض الأشجار قرب الجسر. كانت مرتدية الجينز ذاته الذي يلائمها جداً، وخُفّاً، و (تي شيرت) قطنياً أبيضَ يُظهر محاسن جسدها. لقد لوّح لها وهو يَحيد جانباً أمام سيارتها.

" هاي. يسرني لقاؤكِ. الجو حار جداً ". تجاذبا أطراف الحديث بحميمية. مرة أخرى يشعر بما شعر به سابقاً من صعوبة كونه بحضرة امرأة أحس تجاهها بشيء ما. لم يعد يعرف ما عليه أن يقوله تماماً، إلاّ إن كان الحديث جدّياً. ومع ذلك، فإن روح الدعابة لديه كانت جليّة إن كان ثمة شيء غريب يدعو إلى ذلك. فهو في الأساس ذو طبع رصين ويأخذ الأشياء بجدية. كانت أمه دائماً تقول إنه قد أصبح راشداً وهو في سن الرابعة. وذاك ما قد ساعده جيداً ليكون محترفاً. لكن ذلك لم يساعده جيداً في طريقة تفكيره حول النساء من طبيعة فرنتشيسكا جونسون .

" أردت أن أرقبك وأنت تصنع صورك، أو كما تقول [تلتقط] " .
" حسناً، أنتِ على وشك أن تري ذلك، وستجدين أنه يبعث على الملل. على الأقل الآخرون عموماً يشعرون بذلك. فالأمر ليس كالاستماع لأحد يمارس العزف على البيانو بحيث يمكنك أن تنسجمي معه. في التصوير، هناك وقت طويل يفصل بين الانتاج والعمل. اليوم أنا أُنتج. عندما تظهر الصور في مكان ما، فذلك هو العمل. فكل ما سترينه الآن هو كثير من أشياء ليست مهمة . لكن أهلاً وسهلاً بك، لقد سررت بمجيئك".

لقد تعلقت بكلماته الأخيرة. هو لم يكن مضطراً لقولها. كان بإمكانه أن يكتفي بكلمة أهلاً ، لكنه لم يكتفِ بها. كان سروره حقيقياً برؤيتها، وذاك كان واضحاً. لقد تمنت أن وجودها معه هنا يعني له ما يعني لها .

" هل يمكنني أن أساعدك بطريقة ما ؟ " سألته فيما كان يرتدي حذاءه المطاطي .
" يمكنكِ أن تحملي حقيبة الظهر الزرقاء تلك. أنا سآخذ ذات اللون الداكن مع الحامل".
وهكذا أصبحت فرنتشيسكا مساعِدة مصوّر. لقد كان مخطئاً. كان ثمة الكثير لتراه. كان هناك إنجاز على عدة أشكال دون أن يكون مدركاً ذلك. ذاك ما لاحظتْه البارحة وهذا سبب من الأسباب التي جذبتها إليه. كياسته، نظراته السريعة، العضلات على ذراعيه وهو يعمل. وأكثر من هذا وذاك، الطريقة التي ينقّل جسده بها. الرجال الذين عرفتهم بدوا ثقيلي الحركة مقارنة به .
لم يكن الأمر أنه سريع الحركة. حقاً إنه لم يكن سريع الحركة مطلقاً. كان فيه شيء يشبه طبيعة الغزال، رغم أنها لا تستطيع القول إنه لم يكن قوياً مَرِناً. ربما يكون شبهُه أقرب إلى الفهد من الغزال. نعم. إنه كالفهد، هو ذاك. لم يكن فريسة، بل على العكس تماماً، كما أحسّت .

" فرنتشيسكا، أعطيني الكاميرا ذات النِطاق الأزرق، من فضلك " .

فتحت حقيبة الظهر وهي تشعر بشيء من الحذر الشديد نحو الجهاز غالي الثمن والذي يتعامل به دونما مبالاة، وأخرجت الكاميرا. العلامة التجارية "نيكون" مثبتة على قطعة الكروم فوق عين الكاميرا، مع حرف "F" في أعلى يسار العلامة .
كان جاثياً على ركبتيه شمال شرق الجسر، وحامل الكاميرا على مستوى منخفض. أبقى يده اليسرى ممدودة دون أن يزيح عينه عن عين الكاميرا، فناولته الكاميرا التي طلب ، وهي تراقب يده تمسك بالعدسة حين لامستها. شغّل زر الالتقاط في نهاية الحبل الذي رأته البارحة يتدلى من صُدرته. التُقِطت الصورة. لقّم والتقط ثانية .
صار تحت رأس حامل الكاميرا وفكّها من على الحامل، وأبدل بها الكاميرا التي ناولته. فيما كان يثبت الكاميرا الجديدة، أدار رأسه نحوها وابتسم " شكراً، أنت مساعدة من الطراز الأول " فخجلت قليلاً من إطرائه .
يا الله، ما هذا الآدمي! قد كان مثل كائن من أحد النجوم وقع على ذيل مذنّب وسقط عند نهاية ممر بيتها. فكّرت: لماذا لا أتمكن من أن أقول له " مرحبا بك؟ " أشعر بأنني أُبطِئ بالتحرك نحوه، رغم أنه ليس كذلك. أنا، وليس هو. فأنا لم أعتد أن أكون مع أناس عقولهم تعمل بسرعة مثلما يعمل عقله .

انتقل نحو جدول الماء، ثم صعد على الضفة الأخرى. مشت عبر الجسر ومعها حقيبة الظهر الزرقاء، ووقفت خلف روبرت، سعيدة أيّما سعادة. كان ثمة حيوية، طاقة من نوع ما في الطريقة التي يعمل بها. هو لا ينتظر ما تمليه الطبيعة فقط، بل يتعامل معها بروّية، يشكّلها بحسب رؤيته، ويجعلها تلائم ما يرى بمخيلته. يفرض إرادته على المشهد، يقاوم تغيرات الضوء بعدسات مختلفة، أفلام مختلفة، وبفلترة أحياناً. هو لا يقاوم فقط، بل يسيطر مستخدماً مهارته وذكاءه. المزارعون أيضاً يسيطرون على الأرض بالمواد الكيماوية والجرافات. لكن طريقة روبرت كينكايد لتغيير الطبيعة كانت مرنة، ودائماً يترك الأشياء على ما هي عليه عند الانتهاء من عمله.

نظرت إلى بنطاله الجينز يرُصّ عضلات فخذيه حينما ركع، وإلى قميصه القطني الكالح ملتصقاً بظهره، والشعر الفضيّ فوق ياقته، إلى كيفية جلوسه على أليتيه ليضبط قطعة في جهازه، ولأول مرة منذ أمد بعيد أحست برطوبة بين ساقيها لمجرد أنها تراقب شخصاً ما. وحين شعرت بذلك نظرت إلى سماء تلك الأمسية، وتنفست بعمق، مصغية إليه يلعن بهدوء فلتراً عالقاً لا ينحلّ من على عدسة التصوير .

عبَر الجدول ثانية عائداً نحو السيارتين، خائضاً في الماء بحذائه المطاطي. مشت فرنتشيسكا نحو الجسر المسقوف، وعندما خرجت من طرفه الآخر، كان هو قد انحنى موّجهاً الكاميرا نحوها. التقط صورة، لقّم المغلاق والتقط أخرى، وثالثة فيما هي تمشي نحوه على الطريق. أحست بنفسها تبتسم مع شيء من حَرَج .

" لا تقلقي " قالها مبتسماً. " أنا لن أعرضها في أي مكان من دون إذنك. لقد انتهيت من العمل هنا. أفكر بالتوقف عند الفندق لأغتسل قليلاً قبل الخروج " .

" حسناً، بإمكانكَ ذلك إن أردت. لكن بإمكاني أن أوفّر لك منشفة أو دُشّاً أو مضخة أو أي شيء " قالت ذلك بهدوء وجديّة .

" حسناً، انطلقي أمامي. سأضع معداتي في (هاري Harry) – إنها سيّارتي – وأكون هناك " .

رجعت بسيارة ريتشارد الـ (فورد) الجديدة خارجة من بين الأشجار، وسارت بها على الطريق الرئيسية بعيداً عن الجسر، التفّتْ يميناً، واتجهت نحو (وينترست)، ثم قطعت الطريق الجنوبي الغربي نحو منزلها. الغبار كان كثيفاً جداً لم يمَكّنها من استبانة ما إذا كان يتبعها، على الرغم من أنها لمرة عند منعطف، ظنت أنها رأت ضوءَيّ سيارته على بعد ميل خلفها، وهو يثرثر في سيارته التي أسماها (هاري) .

لابدّ أنه كان هو، ذلك لأنها سمعت سيارته آتية على الممر بعد وصولها مباشرة. نبح جاك عندها، إلا أنه هدأ سريعاً، متمتماً لنفسه " الشخص ذاته كالليلة الماضية، لا بأس إذن على ما أظن ". توقف كينكايد للحظة ليتحدث معه.

خرجت فرنتشيسكا من باب الشرفة الخلفية " دشّ ؟ "

" سيكون ذلك رائعاً. أريني الطريق " .

صعدت به الدرج إلى الحمام الذي أصرت على زوجها ريتشارد أن يزوّد المنزل به عندما كان طفلاهما في طور النمو. كان ذلك أحد الطلبات القليلة التي أصرت عليها. لقد أحبت أخذ حمام ساخن لمدة طويلة عند المساء، ولم تكن لتلتفت إلى مراهقَين وهما يروحان ويجيئان حول أمكنتها الخاصة. كان ريتشارد يستعمل الحمّام الآخر. قال إنه لا يشعر بالراحة مع كل تلك الأشياء النسائية في حمّامها " مرتّب جداً " كما قال .

كان لا يمكن الوصول إلى الحمّام إلا عبر غرفة نومهما. فتحت باب الحمام وأخرجت مجموعة مناشف من خزانة تحت المغسلة " استعمل أي شيء تشاء ". ابتسمت وهي تعضّ على شفتها السفلى برفق.

" سأستعمل بعضاً من الشامبو إن سمحتِ، فخاصتي في الفندق " .

" مؤكَّداً. خذ حاجتك ". كانت تضع ثلاث عبوات مختلفة على المنضدة، كل منها كان قد استُعمِل منها القليل.
" أشكركِ ". قذف ثيابه النظيفة على السرير. لاحظت فرنتشيسكا البنطال الكاكي، القميص الأبيض، والخُفّين. ليس هناك من الرجال المحليين من ينتعل خُفّاً. قليلون في المدينة قد بدأوا ارتداء شورتات الـ (برمودا Bemuda) في أثناء تمارين لَعِب الغولف، عدا المزارعين. أما الخُف فلا أحد يلبسه على الإطلاق.
نزلت السلالم، وهي تسمع صوت الماء المتدفق من الدُشّ. هو عارٍ الآن، فكّرت بذلك، وشعرت بشيء غريب في أسفل بطنها .

صباح ذلك اليوم، بعد أن هاتفها، قطعت بسيارتها أربعين ميلاً نحو مدينة (دي موين) وذهبت إلى مخزن الولاية للخمور. ولمّا لم تكن ذات خبرة جيدة، فقد سألت الموظف عن نبيذ جيد. لكنه لم يكن على معرفة بأكثر مما تعرف. لذا راحت تنظر خلال صفوف الزجاجات حتى مرّت بلصاقة على زجاجة كُتب عليها (فالبوليسِلّا Valpolicella) تذكرت أن هذه العلامة قد مرّت بها منذ زمن بعيد. إنه نبيذ إيطالي أحمر مَز. اشترت زجاجتين، وإناء آخر من البراندي، فيما كان يخامرها إحساس بالرغبة الجسدية والمتعة الدنيويّة .
بعد ذلك بحثت عن فستان صيفي جديد في أحد المحلات في وسط المدينة. عثرت على واحد بلون وردي فاتح ذي شيّالين رفيعين، مكشوف الظهر من الخلف ومن الأمام على نحو مثير إلى حد ما – فكان الجزء الأعلى من نهديها بادياً – وتجَمّع حول خصرها بحزام ضيِّق. وعثرت على خفّ أبيض جديد، غالي الثمن، ذي كعب مسطّح، وتطريز يدوي دقيق على أربطته.
بعد ظهيرة ذلك اليوم، حضّرت مَحشي الفلفل بصلصة البندورة والرز الأسمر والجبن والبقدونس المفروم. ثم جاء دور سلطة السبانخ، خبز الذرة، وحلوى التفاح. وضعت كل ذلك بالثلاجة عدا حلوى التفاح .
سارعت لتقصير فستانها إلى حد الركبة. فمجلة (ريجيستر Register) في مدينة (دي موين) جاءت فيها مقالة في بداية فصل الصيف تقول إن ذلك الطول للفساتين هو المفضّل هذا العام. لطالما فكرت بأن الأزياء وكل ما تنطوي عليه، هي من الغرابة بمكان، فالناس يتصرفون كالنعاج في خدمة المصمِّمين الأوربيين. لكن ذلك الطول للفستان قد ناسبها، لذا قد قصّرته إلى ذلك الحد .

النبيذ قد شكّل مشكلة. فالناس من حولها يحفظونه في الثلاجة، رغم أن الناس في إيطاليا ما فعلوا ذلك قط. إلى الآن كان مايزال دافئاً جداً بتركه على المنضدة. ثم تذكرت البيت الربيعي، فقد كانت درجة الحرارة هناك في الصيف حوالي ستين درجة، لذلك قد وضعت النبيذ قرب الحائط .

لحظةَ رنّ الهاتف، أُغلق الدُّشّ في الطابق العلوي. كان ريتشارد، هاتفاً من مدينة (إلينوي) :

" هل كل شيء على مايرام ؟ "
" نعم "
" نتيجة التحكيم لعِجل كارولاين ستُعلن يوم الأربعاء. وهناك أشياء أخرى نريد رؤيتها في اليوم التالي. سنصل المنزل في وقت متأخر من يوم الجمعة "
" حسناً. اقضوا وقتاً جميلاً، وانتبه في أثناء القيادة "
" (فرانّي) هل أنت متأكدة من أنك على مايرام؟ صوتك ليس كما عهدته "
" أنا على ما يرام. إنها حرارة الطقس. سأكون أحسن حالاً بعد أن أستحم "
" حسنا. سلّمي لي على جاك "
" سأفعل ".
ألقت نظرة على جاك ممدّداً على الأرض الإسمنتية في الشرفة الخلفية .

نزل روبرت كينكايد الدرج ودخل إلى المطبخ، مرتدياً قميصاً أبيض، كُمّاه ثُنيا إلى أعلى المرفقين، بنطالاً كاكِيّاً، خفّين بنيّين، سواراً فضيّاً، سلسلة فضيّة، والزرّان العلويان لقميصه غير مشبوكين. كان شعره لم يزل رطباً وقد صُفف بعناية مع خصلة منسدلة على الجبين. لكنها تعجّبت من الخُفّين .

" سأُخرج أشيائي الميدانية إلى السيارة، وأجلب ملابسي لتنظيفها "
" قم بذلك. أنا سأستحم "
" أتريدين شرب البيرة وأنت تستحمين "
" أود ذلك إن كان لديك نوع ممتاز "

أدخلَ الثلاجة أولاً، رفع لها زجاجة من البيرة وفتحها، فيما هي وجدت كأسين طويلتين تنفعان لتكونا بمثابة قدحين للبيرة.
حينما عاد إلى السيارة من أجل الكاميرات، أخذت بيرتها وصعدت السلالم. لاحظت أنه قد نظف حوض الاستحمام. ملأته بماء دافئ واستقرت فيه، وكأسها على الأرض

بجانبها فيما كانت تزيل الشعر عن جسدها وتغتسل بالصابون. لقد كان هنا قبل دقائق قليلة، كانت تستلقي حيث سرى الماء على جسده، فرأت ذلك شديد الإثارة. كل شيء تقريباً في روبرت كينكايد قد صار يبدو مثيراً لها . شيء بسيط، كأس من بيرة باردة في أثناء الاستحمام جعلها تشعر بحالة من الرقي، فحدثت نفسها لماذا لم تعش وريتشارد بهذه الطريقة أو بشيء منها؟ لكنها تعلم أن الأمر يعود إلى العُرف السائد غير القابل للتغيير. كل الزيجات، كل العلاقات مقيَّدة بذلك العُرف. العرف يقود إلى إمكانية التنبؤ بما قد يحدث، وإمكانية التنبؤ تدعو إلى الركون لما هو قائم. وهي كانت تعي ذلك أيضاً. وهناك شأن المزرعة. فهي تحتاج اهتماماً مستمراً في أوقات عدم الطلب، ولو أن الاستبدال المطّرد بالآلة لليد العاملة، قد جعل العمل أقل إرهاقاً عمّا كان عليه في الماضي .

لكن كان ثمة شيء غير ذلك أيضاً يجري هنا. إمكانية التنبؤ شيء، الخوف من التغيير شيء آخر. وريتشارد كان يخاف من التغيير، أي نوع من التغيير فيما يخصّ زواجهما. لم يكن يريد الحديث في ذلك عموماً. لم يرد الحديث في أمور الجنس على وجه الخصوص. الإثارة الجنسية كانت، على نحو ما، عملاً خطراً، لا يتلاءم مع طريقة تفكيره . لكن لم يكن الوحيد في ذلك، وحقاً هو لا يُلام على ذلك. ما هو حاجز الحرية الذي أُقيمَ هنا؟ ليس فقط على مزرعتهم، بل في الثقافة الريفية؟ وربما أيضاً في الثقافة المدنية؟ لماذا تلك الجدران والأسوار تمنع العلاقات الطبيعية الصريحة بين الرجال والنساء؟ لماذا الافتقار إلى الحميمية، وفقدان الإثارة الجنسية؟ المجلات النسائية تحدثت عن هذه القضايا. والنساء كُنّ بدأن يتوقعن المكانة التي خُصِّصت لهن في ذلك المجال، إضافة إلى تفشّي ما يحدث في غرف نومهن. الرجال على شاكلة ريتشارد – ومعظم الرجال كما اعتقدت – قد هُدِّدوا بتلك التوقعات. كانت النساء تريد الرجال أن يكونوا شعراء وقياديّين، وفي الوقت ذاته، عُشّاقاً عاطفيّين . لم تجد النساء تناقضاً في ذلك. أما الرجال فقد وجدوا في ذلك تناقضاً. الغرف المقفلة والحفلات المخصصة للرجال، وقاعات حمّام السباحة، والتجمعات المنعزلة في حياتهم قد حددت مجموعة من سمات ذكورية معينة ليس لها مكان في الشعر أو في أي شيء دالٍ على رهافة المشاعر. فإن كان في موضوع الإثارة الجنسية ما يدل على الرهافة، وشكل فنيّ بحد ذاته، كما تراه فرنتشيسكا، فإن ذلك لم يكن موجوداً في أسلوب حياتهما. فاستغراقهما في مهامهما اليومية التي اعتادا مزاولتها برضاً، تركهما بعيدَين عن بعضهما، بينما كانت النساء في ليالي مقاطعة ماديسون يتحسرن ويُدِرن وجوههن نحو الجدار .

كان ثمة شيء في ذهن روبرت كينكايد جعله على فهم بكل ذلك بوضوح. وهي كانت متأكدة من فهمه.

بدخولها إلى غرفة النوم، أزالت المناشف عنها، ولاحظت أن الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل. الجو لازال حاراً، لكن الاستحمام قد أنعشها، وأخرجت من الخزانة لباساً جديداً . سحبت شعرها الأسود الطويل نحو ظهرها، وجمعته بمشبك. في ذاك الصباح كانت قد اشترت من (دي موين) قرطين دائريين كبيرين من الفضة، وسواراً فضياً يتأرجح حول معصمها. مرة أخرى، تضع عطر (أغنية الريح)، قليلاً من أحمر الشفاه على وجنتيها، وظِلاّ وردياً لعينيها أفتح لوناً من فستانها. ما اكتسبته من سُمرة البشرة بعملها خارج المنزل، مرتدية الشورت والقميص إلى ما فوق الخاصرة، أكّد طِراز لباسها. ساقاها النحيلتان بدتا أسفل حافة ثوبها جميلتين.
دارت يميناً ثم شمالاً وهي تنظر إلى نفسها في المرآة. وفكّرت: إن ذلك أفضل ما يمكنني القيام به تقريباً. شعرت بالسرور، وقالت بصوت مسموع " رغم ذلك، هذا جيد جداً ".

روبرت كينكايد كان يشرب كأسه الثانية من البيرة، ويعيد حزم كاميراته لحظة دخولها المطبخ. رفع رأسه ناظراً إليها " يا يسوع " قالها بهدوء. كل المشاعر، كل التطلعات على مدى العمر تجمعت في نفسه تلك اللحظة، ووقع في حب فرنتشيسكا جونسون، زوجة المُزارع، من مقاطعة ماديسون بولاية أيَوا، من نابولي منذ زمن بعيد .
" أقصد – ارتعش صوته قليلاً، واخشوشن قليلاً – إن كنت لا تمانعين جرأتي، فإنك تبدين فاتنة. لقد فتنتِني إلى حد آسر. أنا جاد فيما أقول، فأنت في غاية الأناقة فرنتشيسكا، بكل ما في الكلمة من معنى " .
أحست بصدق إعجابه. انتشت به، غاصت فيه، لفّ كيانها وتشرّبته مسام بشرتها كمرهم من يديّ حبيب في مكان ما، كان قد هجرها لسنوات مضت وقد عاد الآن .
وفي تلك اللحظة الآسرة، وقعتْ في حب روبرت كينكايد، المصور الصحفي من بيلينغهام بولاية واشنطن، الذي قاد سيارة (بيك أب) قديمة تُدعى (هاري) .

مجال للرقص ثانية

في تلك الأمسيّة، من يوم الثلاثاء، في أغسطس ١٩٦٥، نظر روبرت كينكايد بعينين ثابتتين إلى فرنتشيسكا جونسون، وهي بادلته تلك النظرة. من على بعد عشر أقدام تفصل بينهما انجذب أحدهما إلى الآخر بقوة، وحميمية، وعلى نحو يصعب الفكاك منه .

رنّ الهاتف. ظلت تنظر إليه، لم تتحرك عند الرنة الأولى والثانية. في فترة الصمت الطويلة بعد الرنة الثانية، وقبل الثالثة، أخذ نفَساً عميقاً ونظر نحو الأسفل إلى حقيبتي كاميراته. عند ذلك تمكنت من الانتقال عبر المطبخ نحو الهاتف المعلّق على الحائط خلف كرسيه تماماً .

" منزل جونسون... مرحباً (مارج Marge)... نعم، أنا بخير... ليلة الخميس؟ " قامت بالعَد، وفكّرت: قال إنه سيبقى هنا لمدة أسبوع، هو أتى البارحة، واليوم هو الثلاثاء. إن اتخاذ قرار الكذب كان سهلاً عليها .

كانت تقف قرب الباب المؤدي إلى الشرفة، سمّاعة الهاتف بيدها اليسرى. هو كان جالساً على بُعد يتيح لها لمسَه وظهره تجاهها. مدت يدها ووضعتها على كتفه بالطريقة العفوية التي تتّبعها بعض النساء مع الرجال الذين يهتمِمن بهم. وهي باتت مهتمة بروبرت كينكايد خلال أربع وعشرين ساعة فقط .

" أوه، (مارج)، سأكون منشغلة ليلة الخميس، سأذهب للتسوق من (دي موين). إنها فرصة جيدة كما تعلمين – في أثناء غياب ريتشارد والأولاد – للحصول على كثير من الأشياء التي كنت أؤجلها " .

يدها ترقد عليه بهدوء. استطاعت أن تشعر بعضلاته الممتدة من رقبته حتى كتفه، تماماً خلف عظم تُرقُوَتِه. كانت تنظر إلى الأسفل إلى شعره الفضي الكثيف، المصفف بإتقان، متراكماًعلى ياقته. أما (مارج) فقد اغتاظت .

" نعم، لقد اتصل ريتشارد منذ قليل.... لا، التحكيم لن يكون قبل يوم الأربعاء، غداً. قال ريتشارد إنهم سيعودون إلى المنزل في وقت متأخر من يوم الجمعة. هناك شيء يريدون رؤيته يوم الخميس. إنه سفر طويل ولا سيّما بسيارة المواشي.... لا، تمرين كرة القدم لن يبدأ إلا بعد أسبوع آخر. نعم، أسبوع . هذا ما قاله مايكل " .

كانت تشعر بدفء جسده عبر قميصه. وصل الدفء إلى يدها، وانتقل إلى ذراعها، ومن هناك انتشر فيها إلى أي مكان أراد الوصول إليه، بدون جهد، عجباً، وبدون تحكّم منها. كان هادئاً، لا يريد إحداث ضجة يمكن أن تسبب استغراب (مارج). وفرنتشيسكا

تفهمت ذلك .
" أوه، نعم، كان ذلك رجلاً يسأل عن الاتجاهات ". كما حزرتْ، فإن (فلويد كلارك) ذهب مباشرة إلى المنزل وأخبر زوجته عن (البيك أب) الخضراء التي رآها في ساحة آل جونسون وهو في طريقه البارحة .

" مصور؟ يا إلهي، لا أعلم. لم أنتبه لذلك. ذلك ممكن ".
الأكاذيب أخذت منحىً أسهل الآن..
" كان يسأل عن جسر روزمان... هل هذا صحيح ؟ يلتقط صوراً للجسور القديمة، أليس كذلك؟ أوه، حسناً، ليس في ذلك أي ضرر.
" هِيبِيّ Hippie ؟ " قهقهت فرنتشيسكا وشاهدت رأس كينكايد يهتز ببطء إلى الأمام والخلف." حسناً، أنا لست متأكدة كيف هو شكل الهِيبِيّ. هذا الشخص كان مهذباً. بقي لدقيقة أو اثنتين ثم غادر..... لا أعلم إن كان هناك (هِبيّون) في إيطاليا يا (مارج)، فأنا لم أذهب إلى هناك منذ ثماني سنين. عدا ذلك، كما قلتُ، أنا لست متأكدة إن كنت سأتعرف على (هِيبِيّ) إن رأيتُ واحداً " .
راحت (مارج) تتحدث عن الحُب الحُر والعلاقات الودية والمخدرات التي قرأت عنها في مكان ما .
" (مارج)، كنت لتوي أستعدّ للدخول إلى الحمّام لحظة اتصالك بي، فمن الأفضل أن أسرع قبل أن يبرد الماء..... أوكي، سأتصل قريباً. باي " .
رأت نفسها مكرهة على أن ترفع يدها من على كتفه، لكن ليس ثمة من عذر كي لا ترفعها. مشت إلى المجلى وأدارت المذياع. مزيداً من الموسيقا الشعبية. وأدارت قرص المذياع إلى أن سمعت صوت فرقة كبيرة، فتوقفت عن البحث هناك.

" تانجِرين Tangerine " قال لها.
" ماذا ؟ "
" الأغنية تدعى (تانجِرين)، إنها تحكي عن امرأة أرجنتينيّة ".
راحا يتجاذبان أطراف الحديث ثانية. يقولان أي شيء يخطر على البال. يغالبان الإحساس بالوقت، متخيّلاً في ذهنه سماع النقرة الخفيفة لباب يُغلَق على شخصين في مطبخ من مطابخ أيَوا .
ابتسمتْ له برقة. " هل تشعر بالجوع ؟ لديّ عشاء جاهز متى أردت " .
" كان يوماً طويلاً جيداً. لا بأس في شرب بيرة أخرى قبل أن آكل. هل ترغبين بشرب واحدة معي؟ " توقفَ، نظر حواليه. لا بد أنها ترغب. فتح زجاجتين ووضع واحدة

بجانبها على الطاولة .
كانت فرنتشيسكا مسرورة بمظهرها وبما كانت تشعر به. أنثى. هذا ما شعرت به. خفيفة بمشاعر دافئة، تنضح أنوثة. جلست على كرسي المطبخ، لفّت ساقاً على ساق، وطرف فستانها قد انسحب إلى أعلى ركبتها اليمنى. كينكايد كان منحنياً على الثلاجة، طاوياً ذراعيه على صدره، وزجاجة الـ (بَدوايزر) في يده اليمنى. قد سَرَّها أنه لاحظ ساقيها .
لقد لاحظها كلياً. كان يمكنه أن ينسحب قبل الآن، كما يمكنه الاستمرار. صوت العقل صرخ به " دع ما أنت فيه يا كينكايد، ارجع إلى الطريق. صَوِّر الجسور، اذهب إلى الهند. توقف في (بانكوك) على الطريق وانظر إلى ابنة تاجر الحرير التي تعرف أسرار البهجة بحسب الأساليب القديمة. اسبح عارياً معها عند الفجر في برك الغابة، واستمع إلى قهقهتها وأنت تقلّبُها عند الشفق. دعك مما أنت فيه – الصوت يهمس الآن – إنه يطغى عليك " .
لكن موسيقا (تانغو) الشارع البطيئة بدأت. كانت قد عُزِفت في مكان ما. يستطيع سماعها. آلة (أكورديون) قديمة. كان ذلك منذ زمن مضى، أو أنه سيكون بعد زمن بعيد، فهو ليس متأكداً. ومع ذلك فهي لا تني تصل سمعه. صوتها قد أغشى معاييره الأخلاقية وأودى ببدائله نحو الاندماج. تلك الموسيقا فعلت به ذلك بعناد حتى لم يعد له مكان للذهاب إليه سوى فرنتشيسكا جونسون .

" يمكننا أن نرقص إن كنت تحبّين. هذه الموسيقا جيدة جداً للرقص " قالها بجدية، لم يَعُد خجِلاً. ثم بسرعة أردف محذّراً " أنا لا أجيد الرقص كثيراً، لكن إن أحببتِ، لربما يمكنني القيام به في مطبخ " .
خربش جاك على باب الشرفة يريد الدخول. لكن بإمكانه أن يبقى في الخارج .
احمّر وجه فرنتشيسكا خجلاً بعض الشيء "حسناً. لكن أنا لا أرقص كثيراً، أو لم أعد أرقص. رقصتُ عندما كنت شابة في إيطاليا، لكن الآن، ففي أماسي رأس السنة الجديدة، عدا ذلك فقليل جداً " .
ابتسم ووضع بيرته على المنضدة. نهضت، واقترب كل منهما من الآخر. " إنها حفلة رقصكم لليلة يوم الثلاثاء من محطة WGN في شيكاغو " قالها الصوت الجهير الهادئ. " سنعود بعد هذه الرسائل " .
كلاهما ضحكا. مكالمات هاتفية، وإعلانات تجارية. كان ثمة شيء ما، ما برح يشدّهما إلى الواقع. شعرا بذلك دون أن يبوحا به .
لكنه عاد واقترب منها وأخذ يدها اليمنى بيده اليسرى. مال برفق على المنضدة، ساقاه

التفّتا عند الكاحلين، الساق اليمنى فوق اليسرى. بقيت هي إلى جانبه أمام المجلى، ونظرت إلى الخارج عبر النافذة قرب الطاولة، شاعرة بأنامله النحيلة تحضن يدها. ليس ثمة من نسيم، وشتلات الذُرة كانت تنمو .

" أوه، لحظة " سحبت يدها من يده على مضض، وفتحت الخزانة السفلية اليمنى. أخرجت منها شمعتين بيضاوين كانت قد اشترتهما من (دي موين) ذاك الصباح، مع حامل نحاسي صغير لكل من الشمعتين، ووضعتهما على الطاولة.
مشى، أمال كل شمعة من الشمعتين وأشعلها، وهي أطفأت مصباح السقف. ساد الظلام الآن، عدا ما تنيره الشعلتان الصغيرتان المتجهتان إلى أعلى، تتأرجحان بوهن في ليلة لا رياح فيها. المطبخ البسيط ما بدا يوماً بهذا الجمال .
بدأت الموسيقا ثانية. ذاك من حسن حظ كليهما، كانت أغنية (أوراق الخريف Autumn Leaves) الهادئة. كلاهما شعرا بالارتباك. لكنه أخذ يدها، وضع ذراعاً حول خصرها، اقتربت منه، وزال الارتباك. على نحو ما، كان الأمر يسيراً. مدّ ذراعه حول خصرها أبعد مما كانت عليه وشدّها نحوه لتكون أكثر قرباً.
استطاعت أن تشمّه، كان نظيفاً، فيه عطر الصابون، ودافئاً. كانت رائحة طيبة أصيلة لرجل حضاري بدا في بعض من شخصيته، غير متحضّر .
" عطر زكي "، قالها جالباً يديهما لترقدا على صدره قرب كتفه .
" أشكرك " .
رقَصَا ببطء. لم يتحركا بعيداً في أي اتجاه. شعرت بساقيه مقابل ساقيها، وبطناهما تماسّتا بين حين وحين .
انتهت الأغنية، لكنه ظل ممسكاً بها، مدندناً اللحن الذي سمعاه، وبقيا في مكانهما إلى أن بدأت الأغنية التالية. تابعا الرقص، فيما أشجار الخرنوب تتذمر من الخريف القادم. شعرت بعضلات كتفه من خلال قميصه القطني الخفيف. كان حقيقياً، أكثر حقيقة من أي شيء عرفته في حياتها. انحنى قليلاً ليضع خدّه على خدّها .

خلال الوقت الذي أمضياه معاً، أشار مرة إلى نفسه – فيما كانا جالسين على العشب بجانب المضخة خلف المنزل – كواحد من أواخر رعاة البقر cowboys. لم تفهم ما قصد إليه فطلبت تفسيراً .
" هناك سلالة من البشر قد انقرضت، أو تكاد. العالم يزداد انتظاماً، والأساليب تزداد انتظاما بالنسبة لي وللبعض. كل شيء في مكانه، وهناك مكان لكل شيء. على سبيل المثال، فإن كاميرتي منظّمة جداً، أعترف بهذا، لكني أتكلّم عمّا هو أبعد من ذلك.

القواعد والأنظمة والقوانين والأعراف الاجتماعية. التسلسل السلطوي وامتداده، خطط وميزانيات بعيدة المدى. سلطة الشركات مع شعار: نحن نؤمن بالنمو. إنه عالم البِدل المطوّرة وبطاقات الأسماء المُلصَقة .

" ليس كل الرجال متشابهين. البعض سوف يفعلون ما هو حسن في عالم الغد. البعض الآخر، ربما قليلون ، سوف لا يفعلون. يمكنكِ أن تري ذلك في الحواسيب والروبوتات وإنجازاتها. في العوالم القديمة كان هناك أشياء يمكننا القيام بها، وكانت مصممة لذلك، وهناك كانت أشياء لا أحد منا، أو ليس من آلة يمكنها القيام بها. نحن نركض بسرعة، أقوياء وعجلين، مندفعين وعنيفين. كانت لدينا الشجاعة لرمي الرماح لمسافات طويلة، ونقاتل في المعارك وجها لوجه . في آخر الأمر، فإن الحواسيب والروبوتات ستدير الأمور. سيبرمج الإنسان تلك الأجهزة، لكن ذلك لا يتطلب الشجاعة أو القوة، أو أي سمات مماثلة. في الحقيقة، البشر يعيشون زمناً أطول من زمن نفعهم. كل ما نحتاجه هو حواضن للحيوانات المنوية للحفاظ على استمرار الجنس البشري، وذلك ما يحدث الآن. النساء يقلن إن الرجال عشاق سيئون، لذا ليس ثمة من خسارة في استبدال العملية الجنسية بالتطبيقات العلمية .

نحن نضيّق الخناق على أنفسنا فنسعى نحو النظام، ونتحكم بعواطفنا، ونحدّ من كفاءتنا وفعاليتنا وكل تلك النماذج من الحِيَل الذهنية. ومع فقدان المجال الحر للعيش فإن راعي البقر يختفي مع أسد الجبل والذئب الرمادي. لم يعد هناك من مجال واسع للرحّالة . أنا آخر رعاة البقر. عملي يتيح لي نوعاً من مجال حر بأقصى ما يمكن إيجاده في هذا الزمن. ولست حزيناً جداً لذلك، لربما حزين قليلاً كما أظن. لا بد من الشعور بالحزن الشديد أحياناً، لكن الانشغال بالعمل هو الطريقة الوحيدة التي تحمينا من تدمير أنفسنا. بحسب رأيي فإن هرمونات الذكورة هي السبب الأساسي للقلاقل على هذا الكوكب. كان الأمر يقتصر على السيطرة على قبيلة أخرى أو محارب آخر. لكن الأمر قد تحول الآن نحو امتلاك الصواريخ، ونحو امتلاك القوة لتدمير الطبيعة بالطريقة التي نقوم بها. (راشيل كارسون Rachel Carson) الكاتبة في شؤون البيئة، كانت مُحِقّة. كذلك كان (جون موير John Muir) و(ألدو ليوبولد Aldo Leopold) . لعنة الأزمنة الحديثة هي تفَوُّق هرمون الذكورة في أماكن يتمكنون فيها من القيام بما هو ضار على المدى الطويل. حتى إن كنا لا نتحدث عن الحروب بين الأمم أو إلحاق الضرر بالطبيعة، فمازالت ثمة عدوانية تتركنا بعيدين عن بعضنا وعن المعضلات التي نحن بحاجة إلى حلها. علينا بطريقة ما أن نرتقي بهرمونات الذكورة تلك، أو على الأقل أن نتحكم بها . ربما قد حان الوقت لأن نُبعد مخزون طفولتنا ونصبح راشدين. سُحقاً،

فأنا أدرك ذلك، وأُقرّ بذلك. أنا أحاول فقط أن أقدّم بعض الصور الجيدة وأغادر الحياة قبل أن يعفو عليّ الزمان، أو قبل أن آتي بما هو شديد الضرر " .

على مَر السنين، فكّرَتْ بما قد قاله. وقد بدا لها للوهلة الأولى صحيحاً على نحو ما. ومع ذلك، فإن تصرفاته كانت على تناقض مع ما قد قاله. كانت فيه عدوانية ما متهورة 3333نحو ذاته، لكنه بدا أن بإمكانه التحكم بها، يوقظها، ثم يدعها تزول حينما يريد. وذاك ما قد حيّرها وجذبها.. قوة لا تُصدّق، لكن مُسيطَر عليها، منضبطة – قوة كالسهم تكتنفها الحماسة دونما أي خبث .

في ليلة الثلاثاء تلك، شيئاً فشيئاً ودونما عَمْد، اقتربا من بعضهما أكثر فأكثر وهما يرقصان في المطبخ. فرنتشيسكا كانت مشدودة إلى صدره، وتساءلت ما إذا كان يُحِسّ بنهديها من خلال لباسها وقميصه، وكانت متأكدة من أنه يُحسّ.
لقد ارتاحت إليه كثيراً. أرادت أن يستمر ما هما فيه إلى الأبد. مزيد من الموسيقا القديمة، مزيد من الرقص، مزيد من التصاق جسده بجسدها. لقد أضحت امرأة متجددة. كانت ثمة فسحة للرقص مجدداً. ببطء وعلى نحو متواصل كانت تروم ملاذاً في مكان لم تكن فيه يوماً .
كان الجو حاراً. الرطوبة كانت عالية، والرعد لم يهدأ بعيداً في الجهة الجنوبية الغربية. الفراشات التصقت بالشباك ناظرة إلى الشموع في الداخل، متابعة اللهب.
في هذا الوقت كان يقع في حبها، وهي تقع في حبه. أبعدت خدّها عن خدّه. رفعت نظرها إليه بعينيها السوداوين. قبّلها وقبّلته سَيلاً من قبلات مديدة ناعمة .
لقد كفّا عن التظاهر بالرقص، والتفّت ذراعها حول عنقه. يده اليسرى كانت على خاصرتها خلف ظهرها، فيما يده الأخرى تمسّد بلطف جِيدها وخدّها وشعرها. الروائي (توماس وولف Thomas Wolfe) تحدث عن (شبح الشوق القديم) . لقد تحرك الشبح داخل فرنتشيسكا جونسون. بل في كليهما .

جالسة قرب النافذة يوم عيد ميلادها السابع والستين، تابعت فرنتشيسكا هطول المطر مع ذكرياتها. حملت كأس (البراندي) إلى المطبخ وتوقفت للحظة ونظرت ملياً إلى البقعة ذاتها حيث وقفا معاً. المشاعر داخلها كانت طاغية، ولطالما كانت كذلك. كانت مشاعر عنيفة لدرجة أنها على مدى السنين قد واظبت على فعل هذا بالتفصيل مرة فقط كل سنة، وإلا فإن عقلها سيتشظّى على نحو ما، تحت الضغط العاطفي العنيف لتلك الذكريات. إن تقشّفها في استرجاع ذكرياتها قد أضحى أمراً ضرورياً لمواصلة حياتها. على الرغم من أن تفاصيل الذكريات – في السنوات القليلة الأخيرة –

كانت غالباً ما تعود أكثر فأكثر، فإنها قد كفّت عن محاولة إيقاف تذكّره. الصور كانت واضحة وحقيقية وحاضرة. ومازالت تعود. مازالت تعود على مدى اثنتين وعشرين سنة. لكنها شيئاً فشيئاً كانت تشكل واقع فرنتشيسكا مرة أخرى، الواقع الوحيد الذي عنيت بالعيش فيه .

كانت تعلم أنها في السابعة والستين، وتتقبل ذلك. لكنها لم تكن لتتصور روبرت كينكايد يقارب الخامسة والسبعين. لم تستطع أن تفكر في ذلك، لم تستطع أن تتفهم ذلك أو حتى أن تفكر في تفهّم ذلك. لقد كان هنا معها، تماماً في هذا المطبخ، بقميصه الأبيض، بشعره الأشيب الطويل، ببنطاله الكاكي، وصندله البني، بسواره الفضي، وسلسلته الفضية حول عنقه. لقد كان هنا وذراعاه يضمّانها .
أخيراً تراجعت عنه حيث كانا يقفان في المطبخ، وأخذت بيده تقوده نحو السلّم، إلى أعلى السلّم، مارّين بغرفة كارولاين، مارَّين بغرفة مايكل، فإلى غرفتها، مضيئة مصباح قراءة صغيراً بجانب السرير .

الآن، وبعد كل تلك السنين، حملت فرنتشيسكا كأسها من (البراندي) ومشت ببطء، صعدت درجات السلّم، يدها اليمنى تتدلّى خلفها لتجلب ذكرياتها معه إلى أعلى السلّم، فإلى أرض الردهة، فإلى داخل غرفة النوم .
الصور الجسدية كانت مطبوعة في ذهنها بوضوح شديد وكأنها صور من صوره المتقنة. لقد تذكرت بتسلسل يشبه الحلم خلْع لباسهما إلى أن صارا عاريين في السرير. تذكرت كيف جعل جسده فوقها تماماً وحرك صدره ببطء فوق بطنها وبين نهديها. وكيف أنه كرر ذلك مرة إثر مرة مثل بعض طقوس مغازلة الحيوان في نصٍ قديم لعلم الحيوان. فيما كان يهتزّ فوقها، كان تارة يقبّل شفتيها وتارة أذنيها، أو يمرر لسانه على طول جِيدها يلعقه كما يمكن لفهد بديع أن يفعل ضمن عشب طويل في أحد المروج. لقد كان حيواناً – حيواناً ذكراً، رشيقاً، صلباً، لم يقم بشيء صريح للسيطرة عليها، ومع ذلك فقد سيطر عليها تماماً بالطريقة الصحيحة التي أرادتها في هذه اللحظة .
على الرغم من حقيقة تَمكُنِه من ممارسة الجنس لوقت طويل دون تعب – الأمر الذي كان جزءاً من إحساسه في تلك الأثناء – إلا أن إحساسه حينها قد تعدى الحِس الجسدي.
حبها له كان روحيّا. لقد بدا لها الآن أنه كان مبتذلاً إلى حدٍّ ما حين كانت تستعيد تفاصيله على مدى عقدين من الزمن. إلا أنه كان روحيّاً. لم يكن مبتذلاً . في أثناء ممارسة الجنس، عبّرت عن إحساسها بجملة واحدة: " أنت قوي جداً روبرت، ذلك

مخيف ". لقد كان قوياً جسدياً، لكنه استعمل قوته بعناية. كان الأمر أبعد من ذلك على أية حال .

الجنس كان أمراً من الأمور. خلال الوقت منذ قابلَته، استقر حدسها – وذلك احتمالاً – على أمر سار، ما هو إلا كسر للروتين والتكرار المُمِض. ما خطر لها كون قوته مُلفِتة .

الذي كان، هو أنه قد استولى عليها كلياً. ذلك ما كان مخيفاً. في البداية ما ارتابت أبداً في أن جزءاً منها سيبقى بمنأى عمّا فعلاه معاً. ذلك الجزء الذي ينتمي لأسرتها ولأسلوب الحياة في مقاطعة ماديسون . لكنه ببساطة قد جرّدها تماماً من ذلك الجزء. لا بدّ أنها توقعت ذلك أول ما ترجل من سيارته ليسألها عن الاتجاهات. لقد بدا حينها ككاهن ساحر. وحُكْمُها الأوليّ ذاك كان صحيحاً .

كانا يتحابّان في السرير لساعة أو ربما أكثر، ثم يتنحّى عنها ببطء وينظر إليها، يشعل لفافة له وأخرى لها. أو أحيانا يكتفي بالرقود إلى جانبها ممرراً يده على جسدها. ثم مرة أخرى يلِجها، هامساً بكلمات رقيقة في أذنها، مُقَبّلاً إياها بين عبارة وأخرى، بين كلمة وكلمة، ذراعه حول خاصرتها، جاذباً إياها إليه وجاذبة إياه إليها .

كانت تسرح بمخيلتها مع ازدياد سرعة تنفسها، تاركة إياه يأخذها إلى حيث عاش، فقد عاش في الماضي البعيد مع سلالات داروينية وفي أماكن غريبة مسكونة.

طامِرةً وجهها في عنقه، ولاصقة بشرتها ببشرته، استطاعت تنسّم رائحة الأنهار ودخان الحطب، استطاعت سماع القطارات البخارية منطلقة من محطاتها في ليال من الماضي البعيد، ورؤية مسافرين بأثوابهم السوداء يواصلون حركتهم على طول أنهار متجمدة، وآخرين خلال مروج صيفية، يغذّون السير نحو النهاية. اجتاحها النمر مراراً وتكراراً كريح عاصفة على مرج، وهي تلتف تحته، راكبة تلك الريح كعذراء معبد ما، نحو منعطف نيران لطيفة مطواعة تنير المنعطف السلس للسُلوان .

دمدمت برقة وهي تلهث " أوه، روبرت... روبرت... أكاد أضيع " .

هي التي لم تصل إلى رعشة الجماع لسنوات خلت، قد وصلت إليها الآن، طويلة متتالية مع من نصفه رجل، ونصفه الآخر كائن آخر.

تعجبت منه ومن تحمّله، وأخبرها أن باستطاعته الوصول إلى تلك الأمكنة بفكره وجسده أيضاً، وأن بلوغ العقل ذروة نشوته أمر له سِمَته الخاصة .

لم يكن لديها فكرة عمّا عناه. كل ما عرفته، أنه سحب حبلاً من نوع ما ولفّه حول كليهما بإحكام كاد يخنقها لو لم تشعر بأن ذلك من أجل حرية الانعتاق من ذاتها .

مضى الليل، والرقص الرائع الدوّار لم يهدأ. روبرت كينكايد نبذ أي معنى لأي شيء منتظم، وانتقل إلى جزء من ذاته، ذاك الجزء الذي يتعامل فقط مع الشكل والصوت

والظل. ذهب تحت ممرات الطرق القديمة كاشفاً وجهته بشموع من صقيع تذيبه الشمس فوق عشب صيف وأوراق خريفية حمراء .
وسمع الكلمات التي همسها لها، كما لو أن صوتاً غير صوته يقولها. مقاطع من قصيدة الشاعر (ريلكه Rilke) "حول البرج العتيق... كنت على مدى ألف سنة أطوف".
سطور القصيدة ترنيمة لآلهة الشمس عند هنود (نافاجو Navajo). همس لها عن الرؤى التي أوحت له بها... عن الرمال المتطايرة والرياح الأرجوانية والبجعات السمراوات يمتطين ظهور الدلافين المتجهة شمالاً على طول شاطئ أفريقيا .
أصوات خفيضة، أصوات غير واضحة، صادرة من فمها وقد مالت نحوه. لكنها كانت لغة فهمها كاملة. ومع هذه المرأة المضطجعة تحته، وبطنه على بطنها، وهو في أعماقها، فإن روبرت كينكايد قد وصل إلى نهاية ما كان يبحث عنه طويلاً .
ولقد أدرك أخيراً المعنى من جميع آثار الأقدام الصغيرة على الشواطئ المهجورة التي طالما مشى عليها، ومن جميع الحمولات السِرّية على متن سفن لم تبحر أبداً، من جميع الوجوه المحتجبة التي راقبته يعبر الشوارع المتعرجة لمدن قديمة. ومثل صياد بارع قديم سافر أميالاً طويلة وإذا به يرى ضوء سراجات مخيم موطنه، فقد تبدّدت وحشته. وأخيراً ، أخيراً لقد وصل بعد طول اغتراب ورقد عليها بكل حبه الصادق لها، أخيراً .
مع بداية الصباح نهض قليلاً في السرير وقال وهو ينظر إلى عينيها " من أجل هذا أنا هنا على هذا الكوكب، في هذا الوقت، فرنتشيسكا. لا لكي أسافر أو أصوّر، لكن كي أحبك. وأنا أعي ذلك الآن. لسنوات عديدة أكثر من سنوات عمري، في مكان ما من زمن مضى، كنت أسقط من حافة مكان عالٍ وكبير. وخلال كل تلك السنوات كنت أسقط نحوك " .
عندما نزلا السلّم، كان المذياع لايزال مُداراً. قد لاح الفجر، لكن الشمس ترقد محتجبة وراء سحابة رقيقة.
" فرنتشيسكا، أريد منك خدمة " ابتسم لها فيما كانت منشغلة بتحضير القهوة .
" نعم؟ " نظرت إليه وقالت في نفسها : أوه، يا إلهي، أحبه كثيراً، راغبة بالمزيد منه دون توقف .
" ضُمّي جينزك وقميصك اللذين ارتديتهما ليلة البارحة، وصندلاً. لا شيء آخر. أريد أن ألتقط صورة لك كما تبدين هذا الصباح – صورة لن يراها سوانا " .
صعدت السلّم، وساقاها واهنتان من كونهما ملفوفتين حوله طيلة الليل. ارتدت

الثياب، وخرجت معه إلى المرعى، المكان الذي التقط فيه الصورة التي كانت تتأملها كل سنة .

الطريق العام والشاهين

توقف روبرت كينكايد عن التصوير في الأيام القليلة التي تلت. وما عدا الأعمال الروتينية التي قلّصتها، فإن فرنتشيسكا جونسون تخلّت عن حياة المزرعة. كلاهما قضيا الوقت معاً، سواء في الحديث أو المضاجعة. عند طلبها منه، ولمرتين، عزف على الغيتار وغنّى لها بصوت كان ما بين المقبول والجيد، وقلما كان غير مريح، وأخبرها أنها أول من يستمع إليه. حينما قال ذلك، ابتسمت وقبّلته، ثم غاصت في مشاعرها تستمع إليه يغنّي عن سفن الصيد ورياح الصحراء .

ركبت معه سيارته (هاري) إلى مطار (دي موين) حيث أرسل فيلم تصوير إلى نيويورك. فقد اعتاد دائماً إرسال البكرات القليلة الأولى مسبقاً كلما تمكن من ذلك، ليتمكن المحرِّرون من رؤية ما يحصل عليه، والفنيّون من الفحص ليتأكدوا أن مصراع كاميرته يعمل على نحو صحيح .
بعد ذلك، أخذها إلى مطعم فاخر لتناول الغداء، واحتضن يديها فوق الطاولة، ناظراً إليها بطريقته العاطفية. ابتسم النادل، منتظراً وهو يرقبهما، آملاً أن يحظى يوماً ما بتلك المشاعر . لقد تعجبت من مشاعر روبرت كينكايد حيال أساليبه في التقرّب، ومن سهولة تقبّله لتلك الأساليب. باستطاعته أن يرى اقتراب موت رعاة البقر، وآخرين مثلهم، وهو معهم. وهي بدأت تتفهم ما قد عناه حين قال إنه في المحطة الأخيرة لفرعٍ من التطور، والطريق بعد ذلك مسدود. في إحدى المرات، عند الحديث حول ما سمّاه [آخر الأشياء]، كان قد همس " [ليس ثانية] صاح سيد الصحراء العليا، [أبداً وأبداً وليس ثانية] ". لم يكن يرى شيئاً يتجاوز ذاته على امتداد الفرع الذي ينتمي إليه. فقد كان من الطراز القديم .

بعد ظهر يوم الخميس، بعد أن مارسا الحب، تحادثا. كلاهما كان يعي أن هذا الحديث يجب التطرق إليه، إلا أنهما كانا يتحاشيانه .
قال لها " ماذا سنفعل؟ " كانت صامتة – صامتة تشعر بالتمزق وحدها. ثم برِقّة

قالت " لا أعلم " .

" انظري، سأبقى هنا إن أردتِ، أو في المدينة، أو أي مكان كان. عندما تعود أسرتك إلى المنزل، سأتحدث ببساطة إلى زوجك وأشرح له الأمر. لن يكون ذلك سهلاً، لكني سأفعل " .

هزّت رأسها " ريتشارد لا يمكن أبداً أن يتفهم هذا الأمر، فهو لا يفكر بهذه العقلية. إنه لا يفهم سحر العواطف وكل تلك الأشياء التي نتحدث عنها ونمارسها، ولن يفهم. وإن ذلك لا يجعله بالضرورة شخصاً رديئاً. ذلك فقط بعيد جداً عن أي شيء قد شعر أو فكر به خلال حياته. لا يمكن له أن يتفاعل مع أمر كهذا " .

" هل سندع كل هذا يذهب أدراج الرياح، إذن؟ " قالها بجدية ولم يكن يبتسم .

" لا أعلم ذلك أيضاً. إنك تتملكني على نحو غريب. لم أكن راغبة في أن أكون مملوكة، لم أكن محتاجة لذلك، وأنا أعلم أنك لم تكن تنوي ذلك، لكن ذلك ما قد حدث. أنا لم أعد جالسة إلى جانبك هنا على العشب، أنت تستحوذ عليّ في داخلك كسجينة راغبة بسجنها " .

" لستُ متأكداً إمّا كنتِ بداخلي، أو إمّا كنتُ بداخلكِ، أو إمّا كنتُ أمتلككِ. أنا لا أريد أن أمتلككِ. أعتقد أن كلينا داخل كائن آخر نحن خلقناه يُدعَى [نحن].

بالأحرى، نحن لسنا حقيقةً داخل ذلك الكائن، نحن نشكّل ذلك الكائن. كلانا أضعنا نفسينا وخلقنا شيئاً ما آخر – شيئاً ما موجوداً الآن، هو مزيج من كلينا. يا مسيح، نحن واقعان في الحب. واقعان فيه عميقاً، لأن الوقوع في الحب ممكن .

تعالي سافري معي، فرنتشيسكا. ليس في ذلك مشكلة. سنمارس الحب على رمال الصحراء، ونشرب البراندي على الشُرفات في مدينة (مومباسا Mombasa) ونحن نَرقُب السفن الشراعية السعودية ترفع أشرعتها مع أول ريح صباحية. سأريك موطن الأُسُود، والمدينة الفرنسية القديمة على خليج الـ (بنغال Bengal) حيث يتواجد مطعم على السطح، وقطارات تتسلق عبر ممرات الجبال، ونُزُل صغيرة تمتد بحانب موطن الـ (باسك Basques) عالياً في جبال الـ (بيرينيه Pyrenees). في مَحْمِيّة النمور جنوب الهند، هناك مكان خاص على جزيرة في منتصف بحيرة واسعة. إن كنت لا تحبين السفر بَرّاً، سأقيم ورشة في مكان ما، وألتقط صوراً لأشياء مَحلّية، أو لأشخاص، أو مهما يمكن أن يدعنا نواصل حياتنا " .

" روبرت، فيما كنا نمارس الحب في الليلة الماضية، قلتَ شيئا مازلت أذكره. بقيتُ أهمس لك حول قوتك... ويإلهي، أنت لديك تلك القوة. قلتَ لي إنك الطريق العام وإنك الشاهين وكل المراكب الشراعية التي أبحرت. لقد كنتَ مُصِيباً. فذلك ما تشعر

به، إنك تشعر بالطريق في داخلك. لا، بل أكثر من ذلك، وذلك بطريقة لست متأكدة من أنني أستطيع شرحها، فأنت هو الطريق. أنت حيث الوهدة ما بين الوهم والحقيقة، هناك على الطريق، والطريق هو أنت.

أنتَ حقيبة ظهر قديمة وسيارة تدعى (هاري)، وطائرات نفاثة نحو آسيا. وذاك ما أريدك أن تكون. إن كان فرعك التطوّري نهايةً مسدودة، كما تقول، فإني أريدك إذن أن تقتحم تلك النهاية بأقصى سرعة، فأنا لست متأكدة من أنك تتمكن من فعل ذلك وأنا معك. ألا ترى، أنني أحبك كثيراً بحيث لا أستطيع التفكير في تقييدك للحظة. إن قمتُ بذلك أكون قد قتلتُ الكائن الرائع الجامح الذي هو أنت، والقوة ستموت معه " .

بدأ بالكلام، لكن فرتنشيسكا أوقفته .

" روبرت، أنا ما أنهيت كلامي بعد. لو كنتَ أخذتني بين ذراعيك وحملتني إلى سيارتك وأجبرتني على الذهاب معك، ما كنت سأتمتم متذمِّرة. يمكنك أن تفعل ذات الأمر بمجرد التحدث إليّ، لكني لا أعتقد أنك ستفعل، فأنت حساس جداً، ومدرك جداً مشاعري نحو ذلك. وأنا لدي شعور بالمسؤولية هنا .

نعم، إن طريقة حياتي مملّة، تفتقر الرومانسية، الإثارة الجنسية، الرقص على ضوء الشموع في المطبخ، والشعور الرائع برجل يعرف كيف يحب امرأة. والأكثر من ذلك كله، إن حياتي تفتقرك. لكن هناك هذا الإحساس اللعين بالمسؤولية يُكبِّلني، نحو ريتشارد، ونحو الأولاد. مجرد مغادرتي، جسداً، سيكون أمراً صعباً جداً على ريتشارد. ذلك وحده يمكن أن يدمّره . وفوق ذلك كله، وهذا هو الأسوأ، فإنه سيعيش حياته مع همسات الناس هنا. سيقولون: هذا هو ريتشارد جونسون، هربت زوجته الإيطالية الصغيرة الحارّة، منذ بضعة سنين، مع مصور طويل الشعر. سيتألم ريتشارد لسماع ذلك، وسيسمع ولدانا – على مدى عيشهما هنا – الضحكات نصف المكبوتة لأهالي وينترسِت، وسيتألمان أيضاً، وسيكرهانني لفعلتي .

بالقدر الذي أريدك به، وأرغب أن أكون معك، وجزءاً منك، لا يمكنني أن أقتلع نفسي بعيداً عن واقع مسؤولياتي. إن أنت أجبرتني – جسدياً، أو عقلياً – على الذهاب معك، فكما سبق أن قلتُ، لن أتمكن من تحمل الصراع في داخلي. ليست لدي القوة لأنساق مع مشاعري تجاهك. على الرغم مما قلتُه حول عدم إبعادك عن الطريق، فإن ذهابي سيكون بسبب رغبتي الأنانيّة فيك . لكن أرجوك لا تحثّني. لا تجعلني أتخلّى عن مسؤولياتي. أنا لا أستطيع فعل ذلك والعيش وأنا أفكر بما فعلت. إن غادرتُ الآن، فإن تلك الأفكار ستحوّلني إلى امرأة أخرى غير المرأة التي أحببتَها " .

روبرت كينكايد كان صامتاً. لقد وعى ما قالته حول الطريق والمسؤوليات، وكيف أن شعورها بالذنب يمكن أن يغيّرها. لقد وعى أنها على حق من جهة. ناظراً عبر النافذة أحس بالصراع داخله – بالصراع من أجل أن يتفهم مشاعرها. وراحت تبكي .

بعد ذلك، حضنا بعضهما لفترة طويلة، وهمس لها " لدي شيء واحد أقوله، شيء واحد فقط، لن أكرره أبداً مرة أخرى لأي شخص، وأطلب منك أن تتذكريه : **في عالم من الغموض، إنّ هذا الإحساس اليقينيّ لا يتأتّى إلا مرة واحدة في العمر، ولا يتأتّى ثانية، مهما كان عدد الحيوات التي نعيشها " .**

لقد مارسا الحب مرة أخرى تلك الليلة – ليلة الخميس، مستلقِيَين معاً حتى ما بعد شروق الشمس بزمن، يتلامسان ويتهامسان. ثم نامت فرنتشيسكا قليلاً، وحين استيقظت، كانت الشمس عالية وحامية. لقد سمعت صرير أحد أبواب (هاري)، فألقت على نفسها شيئاً من لباس .

كان قد أعدّ القهوة، وجلس إلى طاولة المطبخ، يدخن. عندما صارت في المطبخ، ابتسم لها ابتسامة عريضة. دنت منه ودفنت وجهها في عنقه، يداها في شعره، وذراعاه يطوقانها. أدارها وأجلسها في حضنه يتلمسها .

أخيراً وقف، وقد كان مرتدياً جينزه القديم مع شيّالين برتقاليّ اللون يمران فوق قميص كاكيّ، ورباطا حذائه ذي علامة الجناح الأحمر، كانا قد عُقِدا بإحكام، وسكين الجيش السويسري متعدد الاستعمالات كان معلّقا على حزامه. صُدرته الخاصة بالصور معلّقة على ظهر الكرسي، وكبّاس سلك التصوير يبرز من أحد الجيوب. وهكذا كان (راعي البقر) قد أتم تجهيز نفسه . " يُفضّل أن أذهب "

أومأت برأسها، وراحت تبكي. رأت الدموع في عينيه، لكنه ظل يبتسم ابتسامته الطفيفة تلك .

" أيمكن أن أكتب لكِ في وقت ما؟ أريد على الأقل أن أرسل صورة أو اثنتين " .

" لا بأس" قالت وهي تمسح دموعها بمنشفة معلّقة على باب الخزانة.

" سأجعل عذري بتلقي بريد منك على أنه من مصور (هِبّيّ hippie)، إذ إنه لن يكون كثيراً " .

" لديكِ عنواني في واشنطن ورقم هاتفي، صحيح؟ " أومأت برأسها.

" إن لن أكون هناك، اتصلي بمَكاتب مجلة ناشيونال جيوغرافيك. سأكتب لك الرقم هنا " كتب على دفتر صغير بجانب الهاتف، أزال الورقة من الدفتر وأعطاها لها.

" أو يمكنك دائماً إيجاد الرقم في المجلة. تطلبين مكاتب التحرير، فهم يعلمون أين

أكون معظم الوقت.
لا تترددي إن أردت رؤيتي، أو التحدث معي على الهاتف. اتصلي بي بميزة الدفع على المتلقي في أي مكان من العالم، فإن أجور المكالمات بهذه الطريقة، لن تظهر في فاتورتكم. وسأكون في هذه الأرجاء لبضعة أيام أخرى. فكّري بما قلته لك. يمكنني أن آتي وأُسوّي الأمر في وقت قصير، ونسافر معاً نحو الشمال الغربي " .

ظلت فرنتشيسكا صامتة. فهي تعلم أنه يستطيع، فعلاً، تسوية الأمر في وقت قصير. إن ريتشارد أصغر منه بخمس سنين، لكن لا يجاريه فكرياً ولا بدنيّاً . ضمّ نفسه داخل صُدرته. ذهب عقلها، وصار يدور فارغاً " لا تغادر يا روبرت كينكايد" سمعت نفسها تصرخ من مكان ما بداخلها.

آخذاً يدها، مشى عبر الباب الخلفي نحو سيارته. فتح باب السائق، رفع قدمه إلى حافة الصعود الجانبية للسيارة، ثم أنزلها، وعانق فرنتشيسكا ثانية لبضع دقائق. لا أحد منهما تكلم. فقط وقفا حيث هما، يتبادلان أحاسيسهما بصمت، ويبصم كل منهما مشاعره في الآخر، مؤكِّدَين وجود ذلك الكائن الاستثنائي الذي كان قد تحدّث عنه . وللمرة الأخيرة، تركها صاعداً إلى داخل السيارة، وجلس تاركاً الباب مفتوحاً. الدموع سالت على خديه، كما سالت على خديها. سحب ببطء الباب الذي راحت مفاصله تئن، وأغلقه على مهل. (هاري)، كعادتها، لم تكن راغبة لمحركها أن يدور، لكنها سمعت ضربات حذائه على دواسة البنزين، فأذعنت السيارة العجوز أخيراً . علّق ناقل السرعة إلى الخلف، وبقي ضاغطاً على دواسة التعشيق. بِجدّية أولاً، ثم بابتسامة بسيطة، ومشيراً نحو الممر قال " الطريق، كما تعلمين، سأكون جنوب شرق الهند في الشهر القادم. أتريدين أن أرسل لك بطاقة من هناك ؟ " لم تستطع الكلام، لكنها قالت لا بهزّة من رأسها. لن يكون الأمر سهلاً على ريتشارد وهو يجد البطاقة في صندوق البريد . وهي علمت أن روبرت قد تفهّم الأمر، وكان من روبرت أن أومأ برأسه.
تراجعت السيارة نحو ساحة المزرعة، والحصى تطقطق تحتها، فتبعثرت الدجاجات من تحت عجلاتها. أما جاك فقد طارد إحداها نحو مرآب السيارة وهو ينبح . لوّح روبرت كينكايد لها من خلال نافذة السيارة الجانبية المفتوحة، فرأت وميض الشمس منعكساً من سواره الفضي. والزرّان العلويان من قميصه كانا مفتوحين. تحرك نحو الممر مغادراً. وظلت فرنتشيسكا تمسح عينيها، محاولة أن ترى بوضوح، فضوء الشمس يشكّل موشورات غريبة من دموعها. وكما فعلت أول ليلة تقابلا فيها،

فقد أسرعت إلى رأس الممر وراقبت (البيك أب) العجوز تثب عليه. توقفت السيارة عند نهاية الممر، تأرجح باب السائق منفتحاً، وخرج هو واقفاً على حافة الصعود الجانبية. تمكن من رؤيتها عن بعد مئة ياردة، فبدت صغيرة من ذاك البعد. وقف هناك – وهاري لايزال محركها يدور دون صبر في الحَر – وحدّق نحوها. لا أحد منهما أتى بحركة، فقد تودّعا لتوهما. بقيا ينظران – الزوجة من مزرعة أيَوا، والكائن الذي في آخر فرع من تطوره، واحد من أواخر رعاة البقر. ظل واقفاً لثلاثين ثانية، فعَيْنا المصور لا يفوتهما شيء وهما تشكّلان صورة خاصة لهما، لن يضيّعها أبداً .

أغلق الباب، عشّق السرعة، فيما كان يبكي ثانية وهو يدور يساراً على طريق المقاطعة نحو وينترسِت. نظر وراءه قبل أن يحجب الرؤية بستان من أشجار على الحافة الشمالية الغربية من المزرعة، فرآها جالسة القرفصاء على التراب حيث بداية الممر، ورأسها بين يديها .

ريتشارد، مايكل، وكارولاين وصلوا أول المساء مع قصص حول المعرض، ووشاحٍ قد فاز به الثور الصغير قبيل بيعه ليُذبح. كارولاين تناولت الهاتف فوراً. كان يوم جمعة، أمّا مايكل فقد أخذ سيارة البيك أب إلى البلدة ليمارس ما يفعله الصبية ذوو السبعة عشر عاماً في ليالي أيام الجُمَع، فغالباً ما يتسكّعون في الساحة وهم يتحدثون، أو يصيحون بالفتيات المارات بسياراتهن بجانبهم. أدار ريتشارد التلفاز، وهو يخبر فرنتشيسكا كم كان لذيذاً خبز الذرة حينما أكل قطعة مع الزبدة وشراب القَيقَب .

على الشرفة الأمامية جلست فرنتشيسكا تتأرجح. خرج ريتشارد إليها في الساعة العاشرة بعيد انتهاء البرنامج الذي كان يشاهده. تمطّى، وقال " من الجيد مؤكَّداً أن يكون المرء في منزله " ثم نظر إليها " هل أنت على مايرام فرنتشيسكا ؟ تبدين متعبة قليلاً، أو حالمة، أو شيئاً من هذا القبيل ".

" نعم، أنا على أحسن ما يرام، ريتشارد . سرّتني عودتك إليّ آمناً سالماً " .

" حسناً، أنا عائد إلى الداخل، فقد كان أسبوعاً طويلاً في المعرض، وأنا مرهَق. هل ستدخلين (فرانّي) ؟ "

" لا، سأبقى قليلاً. فالجو لطيف هنا، لذا سأبقى جالسة لبعض الوقت ". كانت متعبة، لكنها أيضاً خائفة من أن يكون ريتشارد يفكر بممارسة الجنس. فهي لا يمكنها ذلك الليلة . استطاعت سماع خطواته في غرفة نومهما في الأعلى فيما كانت تتأرجح على

الأرجوحة، وقدماها العاريتان على أرض الشرفة. وتهادى إلى سمعها صوت مذياع كارولاين من خلف المنزل.

تحاشت الذهاب إلى البلدة في الأيام القليلة التالية، مدركة طوال الوقت أن روبرت كينكايد على بعد أميال قليلة فقط. وصراحةً، فهي لا تظن أن باستطاعتها لجم نفسها إن رأته. إذ يمكن أن تركض نحوه وتقول " الآن، علينا أن نذهب الآن ". لقد تحدّت خطر رؤيته عند جسر (سيدر)، والآن ثمة خطر كبير في رؤيته مجدداً .

مع قدوم يوم الثلاثاء، كانت مؤونة المنزل في تناقص، واحتاج ريتشارد قطعة بديلة لقطّافة الذرة التي تتردى. كان هناك منخفض جوّي ذاك النهار، مطر متواصل، ضباب خفيف، والطقس أبرد من المعتاد في شهر أغسطس .
حصل ريتشارد على قطعته، وشرب القهوة مع رجال آخرين في المقهى، فيما كانت فرنتشيسكا تشتري المؤونة المنزلية. كان على علم بقائمة مشترياتها، وينتظرها خارجاً أمام مخزن (سوبر ڤاليو Super Value) عندما انتهت من الشراء، قفز خارجاً من السيارة وعلى رأسه قبعة للوقاية من أشعة الشمس، من منتجات (أليس تشالمرز Allis Chalmers)، وساعدها بتحميل الأكياس على مقعد البيك أب الفورد، وحوْل ركبتيها. فخطر على بالها منصَبا الكاميرا وحقيبتا الظهر.
" عليّ أن أعود إلى مكان الأدوات ثانية، فقد نسيت قطعة أخرى ربما أحتاجها ".
اتجها بالسيارة شمالاً على طريق الولايات المتحدة ١٦٩، الذي يشكل الشارع الرئيسي لمدينة وينترست. إذا بتقاطع طرق يستوجب الوقوف غربي محطة تيكسَكو. رأت (هاري) تبتعد عن أجهزة ضخ الوقود، خارجة نحو الطريق أمامهما، فيما ماسحا زجاجها الأمامي يعملان . حركة تقدمهما بسيارتهما جعلتهما خلف البيك أب العجوز تماماً، ولكونها تجلس على عُلُوّ في الفورد، تمكنت من رؤية قماش مشمع أسود ثُبّت بحبل بإحكام في المؤخرة، محدِّداً حواف حقيبة للملابس وحقيبة غيتار حُشِرَتا في الداخل بجانب العجلة الاحتياطية الموضوعة أفقياً. النافذة الخلفية كانت مرشوشة بقطرات المطر، لكن جزءاً من رأسه كان مرئياً. انحنى كما لو أنه سيأخذ شيئا من صندوق لوحة القيادة. منذ ثمانية أيام فعل ذلك وقد لامست ذراعه ساقها. ومنذ أسبوع كانت في مدينة (دي موين) تشتري فستاناً وردياً .
" تلك السيارة بعيدة عن موطنها " علّق ريتشارد . " ولاية واشنطن. يبدو وكأن امرأة تقودها.. شعر طويل، مهما يكن. من جهة أخرى، أراهن أنه ذلك المصور الذي كانوا يتحدثون حوله في المقهى " .

تابعا المسير خلف روبرت كينكايد بضعة حواجز شمالاً إلى حيث الطريق ١٩٦ يتداخل مع الطريق ٩٢ شرقاً وغرباً. كان موقفاً يتفرع إلى أربعة اتجاهات، بحركة مرور متقاطعة ومكتظة بكل الاتجاهات، زاد من صعوبتها هطل المطر وانتشار الضباب اللذان صارا بازدياد .

انتظرا هناك ربما لعشرين ثانية. كان أمامهما، يبعد عنها ثلاثين قدماً فقط. مازال باستطاعتها أن تفعلها، أن تخرج وتركض إلى باب (هاري) اليميني، وتصعد متسلقة فوق حقيبتي الظهر والثلاجة والمنصبين .
منذ أن ابتعد عنها روبرت كينكايد يوم الجمعة الماضي، أدركت أنه على الرغم من كثرة تفكيرها بمقدار اهتمامها به حينها، فإنها مع ذلك قد أساءت، إلى حد بعيد، تقييم مشاعرها نحوه. لم يبدُ ذلك ممكناً، إلا أنه كان صحيحاً. لقد بدأت الآن تعي ما وعاه هو سابقاً .
لكنها قعدت مكبّلة بمسؤولياتها، تحدّق في تلك النافذة الخلفية، على نحو أقوى مما نظرت فيه إلى أي شيء في حياتها. شارته الضوئية اليسارية أضاءت. خلال لحظة سيكون قد غادر. ريتشارد كان يعبث بمذياع الفورد .
بدأت ترى أشياء بالحركة البطيئة، بعض خدع العقل الغريبة. جاء دوره بالتحرك، وببطء... ببطء... حرك (هاري) نحو نقطة التقاطع، راحت تتخيل ساقيه الطويلتين تعملان على دواسة تعشيق السُرع، ودواسة البنزين، وعضلات ذراعه اليمنى تتحرك وهو يُعشّق السرعة. يلتف الآن على الطريق ٩٢ نحو مدينة (كاونسل بلَفس Council Bluffs)، والهضاب السود، والشمال الغربي.. ببطء، ببطء دخلت البيك أب العجوز نقطة التقاطع موجهة مقدمتها نحو جهة الغرب .
ناظرة من خلال دموعها والمطر والضباب، بالكاد استطاعت قراءة الدهان الأحمر الباهت على الباب : " كينكايد للتصوير – بيلينغهام، واشنطن " .
فيما كان يلتفّ، أخفض نافذته ليتمكن من العبور ضمن الرؤية السيئة. صار على الزاوية، فتمكنت من رؤية شعره يتطاير حينما بدأ يزيد سرعته على الطريق ٩٢، متجهاً نحو الغرب، رافعاً النافذة وهو يقود .
" أوه، يا يسوع... أوه، يا يسوع المسيح... لا..." كانت الكلمات داخلها. " كنتُ مخطئة، روبرت، كنت مخطئة في بقائي... لكني لا أستطيع الذهاب... دعني أخبرك ثانية... لماذا لا أستطيع الذهاب... وأنت أخبرني ثانية لماذا عليّ الذهاب " .
وسمعت صوته يرجع إليها على الطريق ،

" في عالم من الغموض، إن هذا الإحساس اليقينيّ لا يتأتّى إلا مرة واحدة في العمر، ولا يتأتّى ثانية، مهما كان عدد الحيوات التي نعيشها " .
قاد ريتشارد السيارة عبر التقاطع متجهاً شمالاً. نظرت للحظة، متجاوزة وجه ريتشارد، نحو الأضواء الحمراء في خلفية (هاري) وهي تتلاشى في الضباب والمطر.
البيك أب العجوز (تشيڤي Chevy) بدت صغيرة إلى جانب عربة ضخمة شبه مقطورة تهدر نحو وينترست، وقد رشّت موجة من ماء الطريق على آخر راع من رعاة البقر . " وداعاً روبرت كينكايد " همست، وراحت في نوبة بكاء ملحوظ .
التفت ريتشارد إليها " ما بك فرانّي؟ أرجوك... هل لك أن تخبريني ما الذي يزعجك؟ ".
" أنا بحاجة لبعض الوقت لأكون مع نفسي. سأكون على ما يرام خلال بضع دقائق ".
ضبط ريتشارد المذياع على تقارير الظهيرة عن المواشي، نظر إليها وأومأ برأسه .

رمــاد

ساد الليل مقاطعة ماديسون يوم عيد ميلادها السابع والستين عام ١٩٨٧.
كانت فرنتشيسكا مستلقية على مدى ساعتين في سريرها. خلالهما رأت ولمست وشمّت وسمعت كل ما كان منذ اثنتين وعشرين عاماً .
تذكّرت، ثم تذكّرت مرة أخرى. صورةُ ذينك الضوئين الخلفيين الأحمرين المتحركين غرباً على طول طريق أيّوا ٩٢ تحت المطر وعبر الضباب، طافت في مخيلتها على مدى أكثر من عقدين. لمست نهديها فشعرت بعضلات صدره تمسح عليهما. يا الله... لقد أحبته كثيراً، أحبته إذن أكثر مما كانت تظن، وتحبه الآن أكثر. كان يمكن أن تفعل أي شيء لأجله ما عدا تدمير أسرتها أو تدميره.
نزلت السلّم وجلست إلى طاولة المطبخ القديمة ذات السطح المغطى بطبقة من الفورمايكا الصفراء. ريتشارد كان قد اشترى طاولة جديدة بإصرار منه. لكن حينها طلبت أن تحفظ الطاولة القديمة في مرآب، بعد أن غلفتها بعناية بالنايلون قبل خزنها.
" على أية حال، أنا لا أفهم لماذا أنت متعلّقة بهذه الطاولة القديمة " تذمّر ريتشارد فيما كان يساعدها في نقلها. بعد موت ريتشارد، أرجع مايكل الطاولة إلى المنزل لأجلها ولم يسألها أبداً لِمَ أرادتها بدلاً من الطاولة الجديدة. لقد نظر إليها نظرة تساؤل فقط، وهي لم تقل شيئاً .

هي الآن جالسة إلى الطاولة. ثم ذهبت إلى الخزانة وأنزلت منها شمعتين بيضاوين مع شمعدان نحاسي صغير. أشعلت الشمعتين، وأدارت المذياع، وببطء حركت إبرته حتى وجدت موسيقا خفيفة . وقفت بجانب المجلى لفترة طويلة، ناهضة رأسها قليلاً للأعلى، تنظر إلى وجهه، وهمست " أنا أتذكرك، روبرت كينكايد. لعل سيد الصحراء العليا كان مصيباً. ربما كنتَ آخرهم. ربما جميع رعاة البقر الآن قريبون من الموت " .

قبل موت ريتشارد، لم تحاول البتة أن تتصل هاتفياً بكينكايد، أو أن تكتب له، على الرغم من أنها كانت كل يوم، وعلى مدى سنوات، قاب قوسين أو أدنى من القيام بذلك. لو كانت كلّمتْه مرة أخرى لكانت قد ذهبت إليه. لو كانت كتبت إليه، تعلم أنه كان سيأتي من أجلها. وكم كان ذلك ممكناً حدوثه. خلال السنوات، لم يتصل بها هاتفياً أبداً، ولم يكتب لها ثانية بعد أن أرسل لها حزمة واحدة تتضمن الصور ورسالة بخط يده. كانت تعي أنه يتفهم شعورها والتعقيدات التي يمكن أن يتسبب بها في حياتها . اشتركتْ بمجلة ناشيونال جيوغرافيك في شهر سبتمبر عام ١٩٦٥. المقالة عن الجسور المسقوفة نشرت في السنة التالية. وكان ثمة جسر روزمان تضيئه خيوط الفجر الأولى من الصباح الذي كان قد وجد فيه ورقتها. غلاف المجلة أظهر صورة من تصويره عن فريق عمل يجرّون عربة نحو جسر (هوغ باك). وكان هو الذي كتب النص المتعلق بالمقالة أيضاً . على الصفحة الخلفية من المجلة، ذُكِرت أسماء المحررين والمصورين، وأحياناً كانت تظهر صورهم. أحياناً يكون من بينهم. الشعر الفضي الطويل، السِّوار، الجينز أو الكاكي، كاميرات معلّقة على الكتفين، وأوردة ذراعيه الظاهرة. في صحراء كالاهاري جنوبي أفريقيا، عند جدران مدينة جايبور في الهند، على متن زورق في غواتيمالا، في كندا الشمالية. ذاك هو الطريق، وذاك هو راعي البقر. أخذت قصاصات من ذلك واحتفظت بها في مغلف من ورق الـ (مانيلا)، مع إصدار المجلة المتعلق بالجسور المسقوفة، والمخطوطة، والصورتين ورسالته. وضعت المغلف تحت الملابس الداخلية في دُرج من الخزانة – مكان لن ينظر فيه ريتشارد أبداً. ومثل مراقب يتتبعه عن بُعد خلال السنوات، فقد راقبت روبرت كينكايد وهو يشيخ . الابتسامة العريضة كانت هناك، وحتى الجسد النحيل الطويل بعضلاته البارزة. بل بإمكانها أن تصف الخطوط حول عينيه، الانحناءة البسيطة لكتفيه القويين، الوجه الذي ينحو للترهل. نعم يمكنها الوصف. فقد درست ذلك الجسد على نحو أدق مما درست به أي شيء آخر في حياتها. أدق مما درست به جسدها. وهذا ما جعلها مرة أخرى تشتاق له أكثر، إن كان ثمة احتمال لأكثر. تساءلت، لا بل أيقنت، أن لا مثيل له. وكان حقاً كذلك .

على ضوء الشموع، على الطاولة، دققت في تلك القصاصات. كان ينظر إليها من أماكن بعيدة. وصلت إلى الصورة الخاصة من إصدار المجلة عام ١٩٦٧. كان بجانب نهر في شرق أفريقيا، مواجهاً الكاميرا وقريباً منها، مقرفصاً يستعد لالتقاط صورة شيء ما .

عند أول نظرة على هذه القصاصة، منذ سنوات خلت، كانت قد رأت السلسلة الفضية حول عنقه، والآن انتبهت إلى أن ميدالية صغيرة قد عُلِّقت بها. كان مايكل بعيداً في المعهد، وعندما ريتشارد وكارولاين ذهبا للنوم، أخرجت مكَبّرة زجاجية كبيرة – اعتاد مايكل في صغره على استعمالها في مجموعة طوابعه – وقربتها من الصورة. " يا إلهي" زَفَرَت.. الميدالية منقوش عليها [فرنتشيسكا]. كان ذلك طيشاً صغيراً منه، وقد غفرته له مبتسمة. وفي كل الصور بعد تلك الصورة، كانت الميدالية دائماً تبدو معلّقة بالسلسلة الفضية .
بعد عام ١٩٧٥ لم تعد ترى صورته مطلقاً في المجلة، ومقالاته كانت غائبة أيضاً. بحثت في كل إصدار ولم تعثر على شيء. كان قد بلغ الثانية والستين في ذلك العام .

عندما توفي ريتشارد عام ١٩٧٩، وبعد أن انتهت مراسم الدفن، وعاد الابن والابنة كل إلى منزله الخاص، فكرت بالاتصال هاتفياً بروبرت كينكايد. سيكون حينها في السادسة والستين، وهي في التاسعة والخمسين. فمازال ثمة متسع من الوقت، ولو أن أربع عشرة سنة قد ضاعت. فكرت بصعوبة الأمر على مدى أسبوع، وأخيراً أخذت الرقم المطبوع في أعلى رسالته، وأدارت قرص الهاتف.كاد قلبها أن يتوقف حينما بدأ الهاتف يرن. سمعت صوت رفع السماعة وكادت أن تغلق سماعتها. سمعت صوت امرأة يقول "ماكغرغور McGregor للتأمين". انهارت فرنتشيسكا، لكن استجمعت قواها وسألت ما إذا كان الرقم الذي أدارته صحيحاً. كان صحيحاً. شكرتها فرنتشيسكا وأغلقت السماعة. بعد ذلك حاولت الاتصال بمقسم الهاتف بمدينة بيلينغهام في ولاية واشنطن. ولم يكن الاسم في دليل الهاتف. اتصلت بمقسم مدينة سياتل، ولا شيء أيضاً. ثم اتصلت بمكتبيّ غرفتيّ التجارة في بيلينغهام وسياتل. سألت أن يبحثوا عن الاسم في كلٍ من دليليّ المدينتين. قاموا بذلك ولم يكن اسمه مدرجاً. قالت في نفسها يمكن أن يكون موجوداً في مكان ما. تذكرت المجلة، كان قد قال لها أن تتصل بها. موظف الاستقبال كان مهذباً لكنه جديد في المجلة، فتوجب عليه أن يسأل من يمكنه المساعدة في الإجابة على طلبها. حُوِّلت مكالمة فرنتشيسكا ثلاث مرات قبل أن تتحدث مع محرر قد مضى على عمله في المجلة عشرون عاماً، فسألته عن روبرت كينكايد . وبالطبع، فإن هذا المحرر قد تذكّره وقال " تحاولين معرفة مكانه، أليس

كذلك ؟ عذراً منك إن قلت إنه كان مصوراً سيِّئاً. كان مشاكساً، ليس على نحو بغيض، لكن باستمرار. كان يعمل بمبدأ الفن للفن، وهذا لا يتماشى على نحو حسن مع قُرّائنا، فهم يريدون صوراً حلوة، صوراً متقنة، لا يكون فيها الكثير من الجموح. دائماً كنا نقول إن كينكايد غريب إلى حد ما، لا أحد منا عرفه جيداً خارج العمل الذي قام به لنا. لكنه كان محترفاً. كان بإمكاننا إرساله لأي مكان، وكان ينجز المهمام، إلا أنه في أغلب الأحيان لم يكن يوافق على قرارات رئيس تحرير مجلتنا. أما فيما يتعلق بمكانه، فأنا أراجع ملفاتنا في أثناء حديثي معك. لقد غادر المجلة عام ١٩٧٥. العنوان ورقم الهاتف الذي لدينا....". لقد قرأ ذات المعلومات التي كانت لدى فرنتشيسكا. بعد ذلك توقفت عن محاولة البحث، والسبب الغالب في ذلك، أنها كانت تخاف مما يمكن أن تكتشفه.

انطوت على نفسها، وراحت تفكر أكثر وأكثر بروبرت كينكايد. كانت ماتزال قادرة على قيادة السيارة على نحو جيد، والذهاب عدة مرات كل عام إلى مدينة دي موين وتناول الغداء في المطعم الذي كان قد أخذها إليه. في إحدى تلك الرحلات اشترت دفتراً مكسوّاً بالجلد. وشرعت – بخط أنيق – في كتابة قصة حبها معه، وأفكارها عنه. وقد تطلب ذلك ما يقارب حجم ثلاث مفكرات إلى أن أصبحت راضية عن اكتمال عملها .

مدينة وينترست كانت تتطور. كانت هناك نقابة فعّالة للفنون، غالبيتها من النساء، وحديث عن تجديد الجسور القديمة كان دائراً لسنوات. جماعات من الشبان المتحمسين كانوا يبنون المنازل على التلال. الأمور تحلحلت، الشعور الطويلة لم تعد حكراً على النجوم، ولو أن الأحذية الخفيفة كانت لاتزال نادرة جداً، والشعراء قليلون. في ذلك الوقت انزوت تماماً عن المجتمع، عدا بعض الصديقات. علّق الناس على ذلك وعلى رؤيتها غالباً واقفة بجانب جسر روزمان، وأحياناً بجانب جسر (سيدر). قالوا إن كبار السن بين فترة وأخرى يصبحون غريبي الأطوار. وقد أرضى الناس أنفسهم بهذا التفسير .

في الثاني من فبراير ١٩٨٢، سيارة نقل صغيرة تابعة لاتحاد خدمات الطرود البريدية كانت تتهادى صعوداً على الطريق التي تمر بها بسيارتها. لا تذكر أنها طلبت أي شيء. ارتبكت، وقّعت إشعاراً بالاستلام، ونظرت إلى العنوان: " فرنتشيسكا جونسون، RR2، وينترست، أيَوا 50237 ". عنوان الرد في حال عدم الاستلام كان مكتباً للمحاماة في مدينة سياتل . كان الطرد مغلّفاً بإتقان ومدعوماً بتأمين من الدرجة الممتازة. وضعته على طاولة المطبخ وفتحته بعناية. كانت في داخله ثلاثة صناديق أحيطت بحبّات الـ (ستايروفوم Styrofoam) الماصة للصدمات. على أعلى أحد الصناديق

ثُبّت – بشريط لاصق – مغلف مبطّن صغير. وعلى صندوق آخر، ثبت مغلف من مكتب المحاماة، عليه عنوانها، ويبين عنوان المكتب، في حال عدم الاستلام .

أزالت الشريط اللاصق عن مغلف مكتب المحاماة، فتحته وهي ترتعش :

٢٥، يناير، ١٩٨٢

إلى السيدة فرنتشيسكا جونسون

RR2، وينترست، IA50273

السيدة جونسون المحترمة :

نحن موكَّلون بممتلكات المدعو روبرت ل. كينكايد، الذي ارتحل عن الحياة مؤخراً...

وضعت فرنتشيسكا الرسالة على الطاولة. كان الثلج عاصفاً في الخارج عبر حقول الشتاء. راقبته وهو يذرو بقايا الحصاد، آخذاً معه قشور الذرة، مكدّساً إياها في زاوية السياج. قرأت الكلمات مرة أخرى :

نحن موكَّلون بممتلكات المدعو روبرت ل. كينكايد، الذي ارتحل عن الحياة مؤخراً...

" أوه، روبرت... روبرت... لا " قالتها برقة وأطرقت رأسها .

بعد مرور ساعة من الوقت، تمكنت من متابعة القراءة .

لغة القانون المباشرة، ودِقّة الكلمات، أغضبتها :

" نحن موكّلون "

إنه محامٍ يقوم بواجباته تجاه موكّله .

لكن القوة، النمر الذي يمتطي ذيل مذنّب، الـ (شامان) الذي كان يبحث عن جسر روزمان في يوم قائظ من شهر أغسطس، والرجل الذي انتصب على حافة الصعود الجانبية لسيارة تدعى (هاري)، ونظر خلفه إليها وهي تنهار وسط غبار ممر لمزرعة في أيَوا... أين هو في تلك الكلمات؟ كان على الرسالة أن تكون بحجم ألف صفحة. كان عليها أن تتحدث حول نهاية سلسلة التطور وفقدان المدى الحر، حول معاركة رعاة البقر لزوايا السياج، كما تفعل قشور الذرة الشتائية.

" الوصية الوحيدة التي تركها قد أُرِّخت في الثامن من تموز ١٩٦٧.
إن وصيّة تسليم الأشياء لكِ كانت واضحة. في حال عدم عثورنا عليك فإن الأشياء ستُحرَق. والمرفق الذي كُتِب عليه [رسالة] داخل الصندوق، رسالة لك تركها لدينا عام ١٩٧٨، أحكم إغلاق مغلفها، وبقي دون أن يُفتح.
إن رُفات السيد كينكايد قد أُحرِقت. وبناء على طلبه، لم توضع أية علامة تدل على مكانها. وبناء على طلبه أيضاً، رماد جثته قد نُثِر قُرب منزلك بواسطة أحد مساعدينا. أعتقد أن المَوْقع يدعى جسر روزمان .
إن كان بإمكاننا خدمتك أكثر، نرجو ألا تترددي بالاتصال بنا .

بكل الإخلاص،
ألِن ب. كويبِن (المحامي)

أخذت نفَساً، جففت دموعها ثانية، وبدأت تتفحص بقية محتويات الصندوق .
عرفت ما كان يحتويه المغلف المبطن. عرفت ذلك على نحو أكيد كما تعرف أن الربيع سيأتي ثانية هذا العام. فتحته بعناية وأدخلت فيه أناملها. خرجت منها السلسلة الفضية، والميدالية المعلّقة بها، كانت مخدوشة ومنقوش عليها [فرنتشيسكا]، وعلى ظهرها نَقْشٌ بأدق ما يمكن من حروف [في حال العثور، الرجاء الإرسال إلى فرنتشيسكا جونسون، RR2، وينترست، أيّوا، الولايات الأمريكية المتحدة] .
سواره الفضي في أسفل المغلف قد غُلّف بمنديل ورقي. كان هناك مع السوار قصاصة ورقية كُتِب عليها بخط يدها :
" إن كنت تود تناول العشاء ثانية حين [العُث الأبيض في الجو] مرّ بي الليلة بعد إنهاء عملك ".
إنها ورقتها من على جسر روزمان. لقد احتفظ حتى بهذه لذكرياته .
ثم تذكرت أن هذه القصاصة هي الشيء الوحيد الذي لديه منها، الشاهد الوحيد الذي أوجدته، عدا تلك الصور على طبقة حساسة لفيلم تصوير يضمحل ببطء. القصاصة الصغيرة من ذكريات جسر روزمان عليها بُقَع الآن، ومَثنِيّة، كما لو أنها كانت محمولة في محفظة جيب لزمن طويل. تساءلت :
تُراه كم مرة قرأها على مدى السنوات، بعيداً عن الهضاب على طول النهر الأوسط المتفرع من نهر مدينة دي موين. إنها تستطيع تخيله حاملاً القصاصة أمام عينيه في ضوء خافت من مصباح للقراءة على متن طائرة مازالت في طريقها نحو مكان ما، أو جالساً على الأرض يقرأ على ضوء مصباح يَدَويّ في كوخ من القصب في بلدة النمر

جنوب السودان، أو وهو يطويها بعد قراءتها في يوم ماطر بمدينة بيلينغهام، ثم ناظراً إلى صوَر امرأة تتكئ على دِعامة سياج في صباح صيفي، أو وهي خارجة من جسر مسقوف ساعة الغروب .

كل من الصناديق الثلاثة احتوى كاميرا رُكّبت عليها عدسة تصوير، كانت جميعها مُتأذّية. عند قلبها إحداها، قرأت – فوق عين الكاميرا – علامة [نيكون]، وفي أعلى اليسار من علامة [نيكون]، الحرف F. هذه كانت الكاميرا التي ناولتها له عند جسر (سيدر).
أخيراً فتحت الرسالة التي منه إليها. كانت بخط يده على صفحة من ورق رسائله مؤرخة في ١٦ أغسطس ١٩٧٨ :

فرنتشيسكا العزيزة،

آمل أن تكوني بخير وأنت تقرأين رسالتي. سيكون ذلك حينما أكون قد رحلت عن الدنيا. أنا في الخامسة والستين الآن، وقد مضت ثلاث عشرة سنة على اليوم الذي التقينا فيه عندما كنت ماراً بالقرب من ممر منزلك باحثاً عن الاتجاهات.
إنني أُقامر آملاً أن هذه الحزمة لن تربك حياتك بأية حال. إلا أنني لا أحتمل تصور الكاميرات قابعات في صندوق المستعملات بمخزن لآلات التصوير، أو بين أيادٍ غريبة. ستجدينها بحالة سيئة جداً وقت استلامها، لكن ليس لدي من تَرِكة غيرها، وعذراً لأني أُعرِّضك للخطر بإرسالها إليك.
كنت على الطرقات باستمرار تقريباً من عام ١٩٦٥ حتى ١٩٧٥. فقط من أجل أن أُزيل بعضاً من إغراء الاتصال بك، أو القدوم لأجلك – إغراء أشعر به في يقظتي كل لحظة من لحظات حياتي، من أجل ذلك فقط اغتنمت كل ما أتيح لي من مهمات عمل في الخارج. كانت هناك أوقات، بل كثير من الأوقات، قلت فيها " اللعنة، سأذهب إلى وينترست، ومهما كلّف الأمر، سآخذ فرنتشيسكا بعيداً معي ".
لكن، أتذكر كلماتك، فأحترم مشاعرك. لربما كنتِ على حق، فأنا لست تماماً على يقين من ذلك. ما أعلمه هو أن مغادرتي مبتعداً عن ممر منزلك في صباح يوم جمعة حار، كانت أقسى ما فعلته، أو ما سأفعله في حياتي. وأنا حقيقةً أشك في أن يكون قلة من الرجال قد فعلوا في حياتهم أي شيء أصعب من ذلك .
لقد تركت العمل في مجلة ناشيونال جيوغرافيك عام ١٩٧٥، وكرّست معظم ما تبقى من سنوات عملي في التصوير لأشياء من اختياري، منتقياً عملاً قليلاً أينما أُتيح لي، محلياً أو إقليمياً، بحيث يبعدني لأيام قليلة في كل مرة. عانيت عسراً مادياً خلال

ذلك، لكني تماشيت معه على الدوام.

معظم عملي حول ساحل بيوجت ساوند. وأنا أحب ذلك، إذ يبدو كلما تقدم العمر بالرجال عادوا نحو الأماكن كثيرة المياه. أوه، بالمناسبة، لدي كلب الآن – كلب صيد ذهبي. أدعوه (هاي وي Highway) وهو يسافر معي أغلب الأوقات، مخرجاً رأسه خارج نافذة السيارة باحثاً عن لقطة جيدة.

سنة ١٩٧٢، سقطتُ في جرف بولاية ماين في حديقة أكاديا الوطنية، فكُسِر كاحلي. السلسلة والميدالية انفصلتا عند الشلّال. ومن حسن الحظ أنهما استقرتا ليس بعيداً. عثرت عليهما وقام جواهري بإصلاح السلسلة.

أعيش والغبار يغطّي قلبي. ولا يمكن إلا أن أكون كذلك. كانت هناك نساء قبلك، قليل منهن، لكن لا أحد بعدك. أنا لم أُراهِن على العيش عازباً عن قصد، أنا فقط لست مهتماً بالأمر. راقبتُ مرة ذَكَراً من إوز كَنَدا وقد رمى صيادٌ زوجته. كانا شريكَيّ حياة، كماتعلمين. ظل الذكر يحوم في البركة لأيام وأيام. وفي آخر مرة رأيته، كان يسبح وحيداً عبر أعشاب الأرز البري، مواظباً على بحثه. أنا أفترض أن التشبيه جَلِيّ جداً، إلى حد ما، للأذواق الأدبية، لكنه يُعبّر عن شعوري إلى حدٍ بعيد.

في الصباحات الضبابية، أو في الأماسي، فيما صفحة الماء الشمالية الغربية تعكس أشعة الشمس، أتساءل: في أي مكان تُراك تكونين، وما يمكن أن تكوني تفعلين لحظة تفكيري فيك. لا أظن أن ما تفعلينه أمراً معقّداً – تخرجين إلى حديقتك، تتأرجحين في شرفتك الأمامية، أو تَقِفين عند المجلى في مطبخك. أشياء من هذا القبيل.

أتذكر كل شيء. كيف كنتِ كالصيف عبيراً ومذاقاً، أتذكر إحساسي ببشرتك على بشرتي، همساتك في أثناء وصالنا الحميم.

روبرت پن وورن Robert Penn Warren استعمل مرة هذه العبارة "عالم يبدو أنه مهجور من الله". ليست عبارة سيئة، بل قريبة جداً مما أشعر به بعض الأحيان. لكن لا يمكنني أن أعيش دائماً على ذلك النحو.

حينما تنتابني تلك المشاعر على نحو قوي جداً، أُحمّل (هاري) وأذهب مسافراً على الطريق لبضعة أيام. لا أحب أن أشعر بالأسف على نفسي. لست أنا من يأسف على نفسه. ومعظم الأحيان لا أشعر بذلك. بل إنني ممتن لأنني على الأقل قد وجدتك. لقد أضاء كل منا الآخر مثل جسمين من غبار كونيّ.

الله أو الكون – أو مهما اختار الواحد منا ما يسمي به المنظومة العظيمة في توازنها ونظامها – لا يميّز الزمن الأرضي. فأربعة أيام بالنسبة للكون لا تختلف عن أربعة

مليارات سنة ضوئية. أنا أحاول أن أُبقي ذلك في عقلي. لكني، في النهاية، رجل. وإنّ كل العقلانيات الفلسفية التي يمكن أن أستحضرها لا يسعها أن تبقيني بعيداً عنك. إن النحيب الذي لا يرحم لزمن لا أستطيع تمضيته معك، عميق في رأسي، كل يوم، كل لحظة.

لك في أعماقي كل الحب، وعلى هذا سأبقى دائماً.

الكاوبوي الأخير،
روبرت

ملحوظة: لقد وضعتُ في (هاري) – الصيف الماضي – مُحرّكاً جديداً وهي في حالة جيدة .

الرزمة وصلت منذ خمس سنوات. والنظر في محتوياتها قد أصبح طقساً لعيد ميلادها سنوياً. حفظت كاميراته، سواره، والسلسلة مع الميدالية، في صندوق خاص بخزانتها. نَجّار محلّي، صنع الصندوق بحسب تصميمها، من خشب الجوز، وجعل له مانعاً من الغبار، وبطّن داخله. قال لها " يا له من صندوق فاخر" ، فلم تُعلّق فرنتشيسكا بأكثر من ابتسامة .

آخرَ قسم من الطقس السنوي لعيد ميلادها، كان قراءةُ المخطوطة. وقد اعتادت قراءتها دائماً عند نهاية النهار، على ضوء شمعة. جلبتها من غرفة المعيشة ومدتها بعناية قرب شمعة على الطاولة ذات الفورميكا الصفراء، أشعلت لنفسها سيجارة (كمل Camel) كما تفعل كل سنة، أخذت رشفة براندي، وبدأت تقرأ :

السقوط من البُعد [ص Z]

(روبرت كينكايد)

ثمة رياح قديمة مازلت لا أفهمها، رغم أني، كما يبدو،

كنت أقود سيارتي إلى الأبد، على متونها الملتفّة.

أتنقل داخل البُعد [ص]

العالم الذي يمر بمكان ما آخر،

على نحو غير مألوف، يناسبني،

كما لو أن يدَيَّ في جيبيّ، ومُنحنٍ قليلاً نحو الأمام

وأراه عبر نافذة متجر أنظر إلى داخله.

داخل البُعد [ص]، هناك لحظات غريبة.

مع وصولي إلى منعطف نيو مكسيكوالماطرة غرب ماجدالينا،

يتحول الطريق إلى رصيف مشاة، والرصيف إلى ممر للماشية.

مسار شفرتَيّ ماسِحتَيّ زجاجي، والممر يصبحان غابة،

لا شيء كان قد جرى فيها على الإطلاق.

مرة ثانية شفرتا ماسِحَتَيّ الزجاج، ومرة أخرى، شيء ما أبعد من ذلك يعود.

جليد ضخم هذه المرة. أتحرك عبر عشب قصير، ألبس الفرو، شعري متلبّد،

بيَدي رُمْح نحيل وقويّ كالجليد، عضلاتي كلها عنيدة ماكرة.

ما وراء الجليد – لايزال بعيداً خلفه على مدى الأشياء – ماء مالح،

أسبح فيه، وقد حوى شِباك صيد وحراشف،

لا أرى أكثر من ذلك سوى ما وراء العوالق المائية،

الرقم صفر [Zero] .

إقليدس لم يكن على الدوام صائباً،

لقد افترضَ استمرار التوازي حتى نهاية الأشياء.

لكن العيش على غير الطريقة الإقليدية أيضاً بالإمكان،

حيث تتلاقى الخطوط بعيداً هناك.. نقطة التلاشي.. وهْم التقارب.

ومع ذلك فأنا أعلم أن الأمر أكثر من وهْم،

فالاجتماع ممكن أحياناً، تداخُل حقيقةٍ بأخرى نوع من تشابكٍ مريح.

ليست تقاطعات جوهرية تلك التي تَلوح في عالم مُحكَم.

لا صوت لما هو ذاهب آيب.. مُجرّد تنَفُّس حسن، نعم، ذلك هو صوته،

وربما هو الإحساس بالتنفّس أيضاً.

وأجوب ببطء فوق هذه الحقيقة الأخرى، وإلى جانبها، وتحتها، وحولها،

دائماً بعزيمة، دائماً بقوة، حتى بوهب ذاتي لها دائماً،

والآخر يُحسّ بذلك، متقدِّماً بقوّته الذاتية،

واهباً، بِدَوره، نفسه لي.

في مكان ما، هناك أصوات موسيقية في التنفّس،

والرقص اللَولَبيّ الغريب يبدأ حينها على أوزان ألحان كلُّها،

تُلَطِّف رجلَ الثلج ذا الرمح والشعر المتلبد.

وببطء – مُتَدحرجاً،عائداً على مهل... على مهل دائماً – يسقط رجل الثلج...

من البُعد [ص]... وإلى هنا .

عند انتهاء يوم عيد ميلادها السابع والستين، وقد توقف المطر، وضعت فرنتشيسكا مغلف الرسائل المصنوع من نبتة الـ (مانيلا) في الدُرْج الأسفل من المكتب ذي السطح القابل للطي. بعد موت ريتشارد، كانت قد قررت حفظ المغلف في صندوق أماناتها في المصرف، لكنها كانت تجلبه إلى المنزل لأيام قليلة كل سنة في مثل هذا الوقت. غطاء الصندوق المصنوع من خشب الجوز كان مغلقاً على الكاميرات، والصندوق موضوع فوق رف الخزانة في غرفة نومها.

بُعَيد الظهر، زارت جسر روزمان. أما الآن فقد خرجت تمشي على الشرفة. جففت الأرجوحة بمنشفة، وجلست. كان الجو بارداً، لكنها ستبقى لبضعة دقائق، كما كانت تفعل دائماً. ثم مشت إلى ساحة المنزل ووقفت عند بوابتها. ثم إلى بداية الممر. بعد انقضاء اثنتين وعشرين سنة، أمكنها رؤيته يترجل من سيارته في وقت متأخر بعد الظهر، محاولاً إيجاد وجهة طريقه. كما أمكنها رؤية (هاري) تثب سائرة نحو طريق

المقاطعة، ثم تتوقف، وروبرت كينكايد يقف على حافّتها الجانبية ينظر خلفه نحو أعلى الممر .

رسالة من فرنتشيسكا

ماتت فرنتشيسكا جونسون في يناير ١٩٨٩. كانت في التاسعة والستين وقت وفاتها. روبرت كينكايد لو كان حياً يكون في السادسة والسبعين. تقرير سبب وفاتها من قِبَل الطبيب بيّن أنها وفاة طبيعية. قال الطبيب لمايكل وكارولاين " في الحقيقة نحن محتارون قليلاً، لا نرى أي سبب محدد لموتها. أحد من الجيران وجدها منهارة على طاولة المطبخ " .

في رسالة موجهة لمحاميها عام ١٩٨٢، طلبت أن تُحرق جثتها وينثر رمادها عند جسر روزمان. إحراق الموتى كان أمراً غير مألوف في مقاطعة ماديسون – عُدّ تطرُّفاً غير مبرر على نحو ما – ورغبتها أثارت نقاشاً كثيراً في المقهى، وفي محطة وقود تكسَكو، وبين وكلاء تنفيذ الوصية. نَثْرُ رمادها لم يتم أمام العلن .

بُعَيد القُدّاس، سار مايكل وكارولاين بالسيارة على مهل إلى جسر روزمان ونفّذا تعليمات فرنتشيسكا. على الرغم من أن الجسر كان في الجوار، إلا أنه لم يمثل شيئاً خاصاً لدى عائلة جونسون، وتساءلا أكثر من مرة، لماذا أمهما العاقلة كان لها أن تتصرف على هذا النحو المبهم، ولماذا لم تطلب أن تدفن بجانب والدهما، كما هي العادة.

فيما تلا ذلك، بدأ مايكل وكارولاين العملية الطويلة في فرز محتويات المنزل، وجلبا إليه ما كان محفوظاً في صندوق الأمانات بعد أن تم فحصه، وتسليمه لهما، من قِبَل المحامي المحلّي لشؤون المُلْكية .
فصَلا الأشياء عن بعضها من الصندوق، وبدأا النظر فيها. مغلّف الـ (مانيلا) كان في الثلث الأخير من الكومة التي بين يدي كارولاين. تملكتها الحيرة حين فتحته وأخرجت محتوياته. قرأت رسالة روبرت كينكايد التي أرسلها إلى فرنتشيسكا عام ١٩٦٥. بعدها قرأت رسالته في العام ١٩٧٨، ثم المرسَلة من محامي (سياتل) في العام ١٩٨٢. وأخيراً تأمّلت قصاصات المجلة.

" مايكل " نادت كارولاين .
أحس من نبرة صوتها مزيجاً من المفاجأة وانشغال البال، فرفع نظره إليها على الفور
" ما الأمر؟ "
عينا كارولاين كانتا دامعتين، وتهدّج صوتها " أمي كانت واقعة في الحب مع رجل يدعى روبرت كينكايد. كان مصوِّراً. أتذْكُر حين كان علينا جميعاً أن ننظر في مجلة ناشيونال جيوغرافيك وهي تحوي قصة الجسر؟ كان هو الذي التقط صور الجسر هنا. وهل تذكر فيما بعد جميع الأولاد وهم يتحدثون عن الشخص ذي المظهر الغريب بكاميرات على ظهره؟ ذلك كان هو" .

جلس مايكل مواجهاً لها، ربطة عنقه محلولة، وياقته مفتوحة " أعيدي ما قلتِ، ببطء. لا أستطيع تصديق أني سمعتك على نحو صحيح " .

بعد قراءة الرسائل، بحث مايكل في الخزانة الموجودة في الطابق الأرضي، ثم صعد السلّم إلى غرفة نوم فرنتشيسكا. لم يسبق له أن لاحظ صندوق خشب الجوز من قبل. فتحه وحمله نازلاً إلى طاولة المطبخ " كارولاين، ها هي كاميراته " .

في طرف من الصندوق كان ثمة مغلف مطوي محكم الإغلاق، كُتِب عليه بخط فرنتشيسكا " كارولاين، أو مايكل " موضوع بين الكاميرات حيث يوجد أيضاً ثلاث مفكرات بغلاف جلدي .

قال مايكل " لست متأكداً من أنني قادر على قراءة ما في المغلف، اقرئيه لي، إن كنت تحتملين ذلك " .
فتحت المغلف وقرأت بصوت عالٍ :

٧ يناير ١٩٨٧

حبيبيّ كارولاين ومايكل ،

على الرغم من أنني بحالة جيدة تماماً، أعتقد أن الوقت قد حان لترتيب شؤوني (كما يقولون). ثمة أمر، أمر هامّ جداً، عليكما الاطلاع عليه، وذاك سبب كتابتي هذه الرسالة.
بعد أن تنظرا في محتوى صندوق الأمانات، وتجدا مغلف الـ (مانيلا) الكبير المعنون باسمي وعليه خاتم بريد عام ١٩٦٥ – وأنا متأكدة أنكما أخيراً ستجدانه – أرجوكما، إن أمكن، أن تجلسا إلى طاولة المطبخ القديمة لقراءة ما فيه. ستتفهمان قريباً

سبب طلبي هذا.
يصعب عليّ أن أكتب هذه الرسالة لولديّ، لكن عليّ أن أفعل ذلك. ثمة أمر هنا، شديد الزخم ، وجميل جداً، لا يستحق أن يطويه الزمان معي .
إن كان عليكما معرفة حقيقة أُمِّكما، بكل ما فيها من خير وشر، فأنتما بحاجة لمعرفة ما أوشك أن أقوله. فاستَعِدّا .

كما اكتشفتما للتَو، فاسمه كان روبرت كينكايد. وأول حرف من الاسم الأوسط لاسمه الكامل هو (ل)، لكني لم أعرف أبداً الاسم الذي كان يمثّله هذا الحرف. كان مصوِّراً، وكان هنا عام ١٩٦٥ يصور الجسور المسقوفة. لابد أنكما تذكران كم كانت البلدة مثارة حينما ظهرت الصور في مجلة ناشيونال جيوغرافيك، وربما تتذكران أيضاً أنني بدأت تلقّي إصدارات المجلة في ذلك الحين. إنكما تعلمان الآن سبب اهتمامي المفاجئ بها. وبالمناسبة، لقد كنت معه أحمل إحدى حقيبتيه، حينما التقط صورة جسر (سيدر).

افهما أنني أحببت والدكما حباً هادئاً. وعيتُ ذلك آنِفاً، وأعيه الآن. كان طيباً معي وأعطاني كليكما اللذين أخبّئهما بين عِطْفَيّ. لا تنسيا ذلك.
إلا أن روبرت كينكايد كان شيئاً مختلفاً تماماً، لا يشبه أحداً رأيته، أو سمعته، أو قرأت عنه طيلة حياتي كلها. إنه لَمن المستحيل أن أجعلكما تفهمانه تماماً. فقبل أي شيء أنتما لستما أنا. ثانياً، كان يتوجب أن تكونا حوله لتشاهداه وهو يتحرك، لتسمعاه وهو يتحدث حول الوجود عند النهاية المسدودة من مراحل التطور. ربما المفكرات وقصاصات المجلة، ستكون عوناً لكما، لكن حتى هذه لن تكون كافية.
على نحو ما، هو لم يكن من هذه الأرض. هذا أوضح ما يمكنني أن أصفه به.
لطالما فكرت به كمخلوق شبيه بالفهد يمتطي ذيل مذنب. فقد كان يتحرك على هذه
الشاكلة، جسده كان مثل ذلك. قد اقترن على نحو ما بقوة جسدية مع مشاعر دافئة، وكياسة، وكان فيه حسّ تراجيدي غامض. كان يشعر بأنه في طريقه ليكون مهجوراً عفا عليه الزمان في عالم الحواسيب والروبوتات والعيش المنظّم عموماً.
رأى نفسه كواحد من أواخر رعاة البقر.
أول مرة رأيته فيها كانت عندما توقف وسألني عن اتجاه جسر روزمان .
ثلاثتكم كنتم في معرض ولاية إلينوي. وصدّقاني لم أكن أبحث عن اكتشاف أي

مغامرة. فإن ذلك كان أبعد ما يكون عن تفكيري. لكني نظرت إليه لأقل من خمس ثوان، وعرفت أني أرغب به، ولو ليس بالقدر الذي رغبت به فيما بعد .
رجائي ألّا تفكرا به ككزانوفا يحوم متحيّناً فرصة اصطياد فتيات البلدة. لم يكن كذلك البتة. في الحقيقة كان خجولاً بعض الشيء، وكان عليّ أن أفعل الكثير تجاه ما حدث، كما فعل هو، أو حتى أكثر. قصاصة الورقة المطوية مع سواره، هي ما كنت قد علّقته على جسر روزمان ليراها صبيحة اليوم التالي للقائنا الأول. عدا ما بحوزته من صوري، فإنها القطعة الوحيدة الشاهدة التي بقيت بحوزته خلال السنوات الماضية، والتي حقيقة جعلتني متأثرة بأنني لم أكن مجرد حلم مر به.
أعلم أن الأبناء يميلون للتفكير بوالديهم على أنهم لا يأبهون بالرغبة الجنسية، لذلك آمل أن ما سأقوله لن يصدمكما، كما آمل طبعاً أن لا يشوّه ذكراكما عنّي.

في مطبخنا القديم، روبرت وأنا قضينا ساعات معاً. تحدثنا ورقصنا على ضوء الشموع. و...، نعم، تلاقى جسدانا لقاءً حميماً، هناك وفي غرفة النوم، وبين عشب المرعى، وفي كل مكان يمكن أن يخطر في بالكما. كان لقاءً حميماً، لا يُصدّق، قوياً، متجاوزاً للمألوف، واستمر ذلك لأيام، وتقريباً دون توقف. لطالما استعملت كلمة "قوي" حينما أفكر به. لأنه كان كذلك في أثناء التحامنا. كان كالسهم في قوّته. كنت عاجزة تماماً عن مجاراة قوته. لم أكن ضعيفة، فليس هذا ما شعرت به، بل، كنت أُحِسُّني مغمورة تماماً بقوته العاطفية والجسدية الهائلة. حينما مرة همستُ له بذلك، قال ببساطة " أنا الطريق العام، وشاهين، وكل المراكب الشراعية التي أبحرت ".
فيما بعد، بحثت في المعجم. أول شيء يفكر به الناس عند سماعهم كلمة (شاهين Peregrine) هو [الصقر]. لكن هناك معانٍ أخرى للكلمة، وهو لا بد أنه كان يعي ذلك. أحد المعاني هو [أجنبي، غريب]. المعنى الثاني [متنقل أو جوال أو مهاجر]. الكلمة باللغة اللاتينية Peregrinus، وهي أحد جذور الكلمة، تعني [غريب]. وقد كان جميع تلك المعاني – غريباً، أجنبياً بالمعنى الأكثر عموماً للكلمة، جوّالاً، وهو أيضاً كان كالصقر، هكذا أرى الأمر الآن .

ولديّ.. تفَهّما أنني أحاول أن أُعبّر عمّا لا يمكن أن يوصف بكلمات. فقط أرجو أن يأتي يوم وكل منكما يحظى بما مررت به. على أية حال، بدأت أعتقد أن ذلك ليس محتمَلاً . بالرغم من أنني أفترض أنه ليس ملائماً لهذا الزمن أن أقول أشياء كهذه في هذا العصر المستنير ثقافياً، فإني لا أظن أنه من الممكن لامرأة أن تمتلك القوة

المميزة كالتي كانت في روبرت كينكايد. إذن، يا مايكل، ذلك يدعك خارج الأمر. أما فيما يتعلق بكارولاين، أخشى أن يكون خبراً سيئاً أن هناك كان واحداً فقط من طينته.

إنْ ليس من أجل والدكما ومن أجلكما، لكنت رحلت معه عاجلاً إلى أي مكان. لقد طلب مني أن أرحل معه، توسّل إليّ لكي أرحل. لكني لم أكن لأرحل. وقد كان شخصاً على قدر كبير من رقة الشعور والمراعاة، على نحو لا يُجيز له التدخل في حياتنا بعد ذلك . المفارقة هي : حتى لو لم يكن الأمر من أجل روبرت كينكايد، فإني لست متأكدة إن كنت سأستطيع البقاء في المزرعة كل هذه السنين . خلال أربعة أيام، منحني حياة كاملة، عالَماً آخر، وجعل كياني المشتت كياناً واحداً. لم ينقطع تفكيري به ولو للحظة. حتى في اللحظات التي كان فيها خارج وعيي، كنت أشعر به موجوداً على الدوام في مكان ما .

لكن الأمر لم يُبعد مشاعري البتّة عنكما أو عن والدكما. حينما للحظة أفكر بنفسي فقط، لا أكون متأكدة إن كنت قد اتخذت القرار الصحيح. لكن بأخذي الأسرة في الحسبان، أنا متأكدة جداً من أن القرار كان صائباً.

بما أنه عليّ أن أكون صادقة وأخبركما مباشرة منذ البداية، فإن روبرت قد فهم أحسن مما فهمت أنا ما شكّلناه معاً. أعتقد أنني بدأت أدرك دِلالته تدريجياً بعد تقدم الزمن. لو كنت تفهمت ذلك حقاً، حينما كان معي وجهاً لوجه يطلب مني الذهاب، ربما كنت قد غادرت معه.

اعتقد روبرت أن العالم قد أصبح مُغرقاً في العقلانية، ولم يعد يثق بالسحر، أكثر من اللازم . غالباً ما تساءلت إن كنت عقلانية في اتخاذ قراري.

أنا متأكدة من أنكما قد وجدتما وصية دفني غير مبررة، معتقِدَين أنها ربما كانت صادرة عن امرأة عجوز مشوّشة. بعد قراءتكما لرسالة المحامي من سياتل عام ١٩٨٢، ولمذكراتي، ستفهمان لماذا طلبت دفني بتلك الطريقة. لقد وهبت حياتي لأسرتي، وأعطيت روبرت كينكايد ما كان قد تبقى مني.

أظن أن ريتشارد علم أن في داخلي ما لم يستطع الوصول إليه، وأنا أتساءل أحياناً ما إذا كان قد وجد مغلف الـ (مانيلا) بعد أن احتفظت به في المنزل ضمن المكتب. قبيل لفظه أنفاسه الأخيرة. كنت جالسة بقربه في مشفى (دي موين)، قال لي " فرنتشيسكا، أعلم قد كانت لديك أحلامك الخاصة أيضاً. يؤسفني أنني لم أستطع تلبيتها لك ". تلك كانت أكثر لحظة مؤثرة في حياتنا التي عشناها معاً.

لا أريد أن أُشعركما بالذنب أو الأسف، أو أي شيء من هذا القبيل. فليس ذلك ما

أهدف إليه في هذه الرسالة. أريدكما فقط أن تعلما كم أحببت روبرت كينكايد . تعايشت مع هذا الحب يوماً بيوم، على مدى ما فات من السنوات، كما تعايش هو. بالرغم من أننا لم نتحدث ثانية مع بعضنا، بقينا مترابطين معاً بأقوى رابط يمكن أن يكون بين اثنين. لا أجد الكلمات التي تمكّنني من أن أعبر عن ذلك على نحو وافٍ. وقد عبّر عن ذلك على أفضل ما يكون حينما قال لي كففنا عن كوننا كائنين منفصلين، وبدلاً من ذلك قد أصبحنا كائناً ثالثاً تشكّل منّا نحن الاثنين. لم يعد أحد منا مستقلاً بوجوده عن ذلك الكائن. وقد تُرِك ذلك الكائن يهيم متجولاً.

أتذكرين كارولاين نقاشنا الحاد في أحدى المرات حول الفستان الوردي المعلّق في خزانتي؟ لقد رأيتِه يومها وأردتِ ارتداءه. لقد قلتِ إنك لا تذكُرينني مرتديتَه، ولِمَ لَمْ أجعله مناسباً لمقاسي. ذلك الفستان هو الذي ارتديته لأول مرة في أول ليلة روبرت وأنا التقى فيها جسدانا لقاءً حميماً. لم أبدُ في حياتي كلها بالحسن الذي بدوتُ فيه تلك الليلة. كان الفستان ذكراي الصغيرة المجنونة من ذلك الوقت. ولهذا لم ألبسه ثانية أبداً، ورفضت أن أسمح لك بارتدائه.

بعد مغادرة روبرت عام ١٩٦٥، أدركت أنني علمت النذر اليسير عمّا يتعلق بتاريخ عائلته. ذلك على الرغم من ظنّي أنّي قد علمت كل شيء آخر تقريباً عنه – كل شيء عددته مهمّاً حقاً – خلال تلك الأيام القليلة. كان طفلاً مات والداه، قد ولد في بلدة صغيرة بولاية أوهايو. لستُ متأكدة إن كان قد ذهب إلى معهد ما أو حتى إلى مدرسة ثانوية، لكنه كان ذا ذكاء فطري وقّاد، من النوع الصوفيّ إلى حد ما. أوه نعم، كان صحفياً مصوِّراً برفقة الجنود البَحّارة جنوب المحيط الهادئ خلال الحرب العالمية الثانية. تزوج مرة، ومُنِيَ بالطلاق قبل أن يلتقي بي بزمن بعيد. لم يرزق بأولاد. كانت زوجته موسيقية من نوع ما، أظن أنها كانت تؤدي الأغاني الشعبية كما قال لي، وغياباته الطويلة في رحلات تصويرية كانت قاسية على حياتهما الزوجية. فوضع اللوم على نفسه بشأن ذلك الانفصال.

إلى جانب ذلك، بحسب علمي، لم يكن لروبرت عائلة. أطلب منكما أن تجعلاه جزءاً من عائلتنا، ولو بدا هذا صعباً عليكما أول الأمر. فعلى الأقل أنا لدي عائلة، حياة مع آخرين. روبرت كان وحيداً. لم يكن ذلك عدلاً، وقد علمتُ بذلك.

من أجل ذكرى ريتشارد، وبسبب الطريقة التي يتحدث بها الناس عادة، فأنا – على الأقل أنا، كما أظن – أُفضّل أن يبقى كل هذا، على نحو ما، ضمن أسرة جونسون. ومع ذلك سأترك الأمر لتقديركما.

وعلى أية حال، أنا مؤكداً لست خجلة مما مررنا به أنا وروبرت معاً. بل على العكس، فلقد أحببته كثيراً وأنا يائسة على مدى كل تلك السنوات، وبالرغم من ذلك، ولأسبابي الخاصة، فقد حاولت الاتصال به مرة واحدة فقط. كان ذلك بعد موت والدكما. فشلت محاولتي، وخشيت أن يكون شيء ما قد حصل له، ولذا لم أحاول أبداً الاتصال به ثانية بسبب تلك الخشية. ذلك لمجرد أنني لا أستطيع مواجهة تلك الحقيقة.

إذن بإمكانكما تخيل شعوري حينما وصلني الطرد مع رسالة المحامي عام ١٩٨٢. وكما قلت، آمل تفهمكما، وألّا تسيئا الظن بي. إن كنتما تحبّاني، إذن يجب أن تحبّا ما قد فعلت .

روبرت كينكايد علّمني ما يعني أن أكون امرأة، بطريقة، قلّة من النساء، أو ولا واحدة منهن، ستحظى باكتشافها. لقد كان رائعاً ودافئ المشاعر، وهو بالتأكيد جدير باحترامكما، وربما بحبّكما. آمل أن تتمكنا من الشعور نحوه بالاحترام والحب معاً. فبأسلوبه الخاص، من خلالي، كان طيّباً معكما .

دمتما سالمَين، ولدَيّ..

أُمّكما..

ساد الصمت المطبخ القديم. أخذ مايكل نفَساً عميقاً، ونظر إلى الخارج عبر النافذة . أمّا كارولاين، فقد نظرت إلى ما حولها، إلى المجلى، إلى الأرض، إلى الطاولة، وإلى كل شيء . حين تكلمت، أتى صوتها همساً بعض الشيء " أوه، مايكل.. مايكل، فكّر فيهما على مدى كل تلك السنوات، وهما يرغبان ببعضهما يائسين أشد اليأس. استغنت عنه لأجلنا ولأجل والدنا. وروبرت كينكايد بقي بعيداً عنها احتراماً لمشاعرها تجاهنا. مايكل، أنا أكاد أستطيع تفهّم ما جرى.كلانا يواصل حياته الزوجية بكثير من اللامبالاة، ونحن كنا جزءاً من سبب انتهاء علاقة حب لا يُصَدَّق، على ذلك النحو.

أمضيا أربعة أيام مع بعضهما، أربعة فقط. اقتطفاها من الحياة. كان ذلك عندما ذهبنا إلى ذلك المعرض المضحك في ولاية إلينوي. انظر إلى صورة ماما. لم أرها هكذا قط! إنها جميلة جداً، وهذا ليس بفعل التصوير، بل بفعل تأثيره فيها. فقط انظر إليها، إنها متحمِّسة وحرة. شعرها يتطاير مع الريح، وجهها نضر. إنها تبدو رائعة ".

" يا يسوع " هذا كل ما استطاع مايكل قوله، ماسحاً جبينه بمنشفة المطبخ مُرَبِّتاً بها حول عينيه، فيما كارولاين لم تكن تراه . تابعت كارولاين قائلة " من الواضح أنه لم

يحاول أبداً الاتصال بها خلال كل تلك السنين. ولابد أنه مات وحيداً، وهذا سبب إرسال كاميراته لها. أتذكّرُ الشجار مع أمي حول الفستان الوردي. استمر ذلك لأيام. انتحبتُ وسألتُ لماذا. بعدها رفضتُ التكلم إليها. كل ما كانت قد قالته: لا، كارولاين، ليس ذلك الفستان " .

وتذكّرَ مايكل الطاولة القديمة التي كانا يجلسان إليها. إذن ذلك هو سبب طلب أمّه منه إعادتها إلى المطبخ بعد وفاة والدهما.

فتحت كارولاين المغلف الصغير المبطّن. " هاهو سواره وسلسلته الفضية والميدالية. وهاهي القصاصة التي ذكرتها أمي في رسالتها، تلك التي ثبتتها على جسر روزمان. ذلك هو سبب إرساله لها صورة الجسر تُظهر قصاصة الورق مثبتة عليه. مايكل، ما الذي سنفعله؟ فكّرْ في ذلك للحظة، سأعود حالاً ". ركضت إلى أعلى الدرج وعادت خلال دقائق قليلة حاملة الفستان الوردي مطوياً بعناية في غلاف بلاستيكي. أخرجت الفستان ونفضته ورفعته بيديها ليراه مايكل. " تخيّلْها مرتدية إيّاه وهي ترقص معه هنا في المطبخ. فكّرْ بكل الأوقات التي قضيناها هنا، وبالتخيلات التي لابد راودتها وهي تطهو وتجلس هنا معنا تتحدث حول مشاكلنا. حول أي كُليّة سننتسب إليها، حول كم من الصعب الحصول على زواج ناجح. يا إلهي كم نحن ساذجان وغير ناضجَين مقارنة بها ". هزّ مايكل رأسه والتفت إلى الخزائن فوق المجلى " هل تفترضين أن أمي احتفظت بأي شيء يمكن شربه هنا؟ يعلم الله أني سأشرب منه. ولكي أجيب على سؤالك، فأنا لا أعلم ما الذي سنفعله " .

نقّبَ داخل الخزائن فوجد زجاجة من البراندي فارغة تقريباً " فيها ما يكفي لشرب كأسين هنا، كارولاين. أترغبين بكأس؟ "

" نعم " .

أخذ مايكل من الخزانة الكأسين الوحيدين للبراندي ووضعهما على سطح الفورمايكا الصفراء للطاولة. أفرغ محتوى آخر زجاجة لفرنتشيسكا من البراندي في الكأسين، فيما كارولاين راحت تقرأ بصمت المجلد الأول من المفكرات :

" أتاني روبرت كينكايد يوم الاثنين، في السادس عشر من أغسطس عام ١٩٦٥. كان يحاول العثور على جسر روزمان. كان ذلك في أواخر ما بعد الظهر، الجو حار، وكان يقود سيارة (بيك أب) سمّاها (هاري)..... " .

ملحق :
صقْرُ ليل مدينة تاكوما

عندما كتبتُ قصة روبرت كينكايد وفرنتشيسكا جونسون، ازددت افتتاناً بكينكايد، وكم قليلاً أيٌّ منا عرف عنه وعن حياته. قبل أسابيع قليلة من إرسال الكتاب إلى المطبعة، سافرتُ بالطائرة إلى سياتل وحاولت ثانية كشف معلومات إضافية حوله. وبما أنه أحب الموسيقا، وكان بذاته فناناً، فقد فكرتُ بأن هناك أحداً ما – من المهتمين بالموسيقا والفن في منطقة (بيوجت ساوند) – لربما عرفه. وقد كان محررُ أخبار الفن في جريدة (سياتل تايمز) مفيداً لي. على الرغم من عدم معرفته بكينكايد، فقد زوّدني بوسيلة للوصول إلى الأقسام ذات الصلة بالجريدة من عام ١٩٧٥ حتى ١٩٨٢، وهي الفترة التي كنت مهتماً بها على الأكثر.

بتصفّحي إصدارات المجلة لعام ١٩٨٠، مررت بصورة عازف أسود لموسيقا الجاز، وهو عازف على آلة الساكسوفون، يُدعى (جون "نايت هوك"* كامّينغز John "Nighthawk" Cummings"). وإلى جانب الصورة ذُكِر اسم روبرت كينكايد على أنه المصوِّر. زوّدني اتحاد الموسيقيين المحليين بعنوان الموسيقي كامّينغز، وأعلموني أنه لم يعد يمارس العزف بفعالية منذ بضعة سنين. كان العنوان في شارع جانبيّ قرب المنطقة الصناعية لمدينة (تاكوما Tacoma) الواقعة على الطريق العام رقم خمسة، النازل من سياتل. تطلّب الأمر مِنّي عدة زيارات لشقته قبل أن أحظى به موجوداً في المنزل. في البداية كان حذراً من استفساراتي. لكني أقنعته بأن اهتمامي بكينكايد هو اهتمام جادّ لا ينطوي على أية خطورة، فأصبح بعدها ودوداً وصريحاً. فيما يلي نسخة معدَّلة قليلاً عن مقابلتي مع كامّينغز الذي كان في السبعين من عمره وقت حديثي معه. كنت قد أدرت مُسجِّلتي وتركته يخبرني حول روبرت كينكايد .

مقابلة مع "صقر الليل" كَمِّنغز :

كانت لي ضجّة بصالة (شورتيز Shorty's) في سياتل حيث كنت أقيم في ذلك الوقت، فاحتجت صورة لي لامعة بالأبيض والأسود وذلك من أجل الشهرة .

---

* صقر الليل. (المترجم)

أخبرني عازف آلة الـ (باس Bass) أن هناك رجلاً كان يعيش على إحدى الجزر وله بعض الأعمال التصويرية الجيدة. لم يكن لديه رقم هاتف، فأرسلت إليه بطاقة بريدية.

لقد جاءني، فرأيته مدنيّاً من الطراز القديم ذا هيئة غريبة حقاً، يرتدي بنطال جينز وحذاءً بساق طويلة، وحمّاليّ بنطال برتقاليّيّ اللون، أخرج كاميراته التي عفا عليها الزمان والتي بدت كأنها غير صالحة للعمل، فقلت في نفسي ما هذا ! وضعني مقابل حائط ذي لون فاتح مع بُوقي وطلب مني العزف على نحو متواصل. فعزفت. خلال الدقائق الثلاث الأولى تقريباً، وقف الرجل حيث هو، ونظر إليّ بإمعان، بإمعان شديد، بأجمل عينين زرقاوين رأيتَهما في حياتك. وبعد هنيهة، بدأ يلتقط الصور. بعدها طلب مني أن أعزف لحن أغنية "أوراق الخريف" ففعلت. عزفت اللحن ربما لعشر دقائق متواصلة فيما هو مستمرّ بالتقاط الصور، صورة في إثر صورة. ثم قال " رائع، صارت الصور لدي، سأجلبها لك غداً " .

جلبها لي في اليوم التالي، وكان أن ذُهِلت. فأنا لدي كثير من صوري، لكن هذه كانت الأفضل إلى حد بعيد . طلب خمسين دولاراً أجراً له، فبدا لي أجراً زهيداً جداً. شكرني، وغادر . وفي طريقه نحو الخارج سألني أين أمارس العزف، فأجبته: في صالة (شورتيز). بعد مُضيّ بضع ليال، نظرت إلى الحضور ورأيته جالساً إلى طاولة، بعيداً في زاوية بعيدة، يصغي بانتباه شديد. بعد ذلك بدأ يأتي مرة في الأسبوع، ودائماً يوم الثلاثاء، ودائماً يشرب البيرة لكن ليس بكثرة.

أحياناً كنت أذهب إليه في أثناء الاستراحات وأتحدث معه لدقائق قليلة. كان هادئاً، لا يتكلم كثيراً، لكنه دمِث جداً، ودائماً يسألني بأدب ما إذا كنت لا أمانع عزف لحن "أوراق الخريف".

بعد فترة، صار علينا أن نتعرف قليلاً على بعضنا. كان من عادتي أن أذهب إلى الميناء وأرقب الماء والسفن. وعلمت أن من عادته ذلك أيضاً. فكنا نجلس على مقعد طيلة فترات ما بعد الظهر ونتحدث. كنا رجلين مسنّين منهكين بدأا يشعران إلى حد ما بأنهما غير مباليين، قد عفا عليهما الزمان.

اعتاد جلب كلبه معه. كان كلباً لطيفاً، يُدعى (هاي وي Highway) .

كان فاهماً للسحر. موسيقيّو الجاز يفهمونه أيضاً. وربما ذلك قد قرّبنا من بعضنا. يعزف أحدنا لحناً كان قد عزفه لآلاف المرات قبلاً، وفجأة تكون ثمة مجموعة أفكار جديدة تصدر مباشرة من بوقك، من دون أن تكون واعياً بها أبداً في عقلك. لقد قال إن التصوير والحياة عموماً يشبهان ذلك كثيراً. ثم أضاف " كذلك الأمر في أثناء ممارسة

الجنس مع امرأة تحبها " .
كان يعمل على شيء ما، يحاول تحويل الموسيقا إلى صور مرئية. وقد قال لي " جون، أتعرف تلك اللازمة الموسيقية التي تعزفها مراراً تقريباً، على الميزان الموسيقي الرابع للحن (السيدة الراقية Sophisticated Lady) ؟ حسناً، أعتقد أنني صورت ذلك على فيلم عند الصباح التالي. كان هناك ضوء منعكس من الماء مباشرة، ونوع من طائر مالك الحزين أزرق اللون، كليهما معاً ضمّتهما عين كاميرتي. رأيت لحظتها، على الواقع، اللازمة التي تعزفها، وسمعتها، والتقطت الصورة " .
لقد أمضى كل أوقاته يعمل على تحويل الموسيقا إلى شيء مصوَّر. كان مهووساً بذلك. لا أعلم كيف كان يكسب رزقه. لم يُكثر الحديث أبداً حول حياته الخاصة. علمتُ أنه سافر كثيراً منشغلاً بالتصوير، لكن لم يعد يسافر كثيراً، إلى أن جاء يوم سألته فيه عن الشيء الفضيّ الصغير المعلّق بسلسلة حول عنقه. قمت مقترباً منه، فاستطعت أن أرى اسم فرنتشيسكا منقوشاً عليه، فسألته " هل من شيء خاص حول هذا ؟ "
للحظة، لم يقل شيئاً، فقط راح يحدق بعيداً في الماء. ثم قال "كم لديك من الوقت؟"
كان يوم الاثنين يوم إجازتي، فقلت له لديّ من الوقت على قدر ما يستغرقه الأمر.
بدأ يتحدث. كان كصنبور ماء فُتِح. تكلم طيلة ما بعد الظهر ومعظم الليل. شعرت بأنه كان يخبّئ كل هذا في داخله لمدة طويلة. لم يذكر أبداً اسم عائلة المرأة، لم يقل أبداً أين حدث كل هذا. لكن يا رجل، روبرت كينكايد هذا كان شاعراً وهو يتحدث عنها.
لابد أنها كانت امرأة جديرة بالذكر حقاً، سيدة لا تُصدّق. راح يقتبس من قطعة كان قد كتبها من أجلها، شيء ما عن البُعد [ص]، على ما أذكر. أتذكّر أن الذي ألقاه قد بدا لي كقطعة من المقطوعات الحُرّة المرتجَلة للملحن والعازف (أورنت كولمان Ornette Coleman). وبينما كان يتحدث، بكى يا رجل. ذرف دموعاً غزيرة، على النحو الذي يجعل رجلاً مُسناً يبكي، وعلى النحو الذي يجعل ساكسوفوناً يعزف.
بعد ذلك، فهمت لماذا كان يطلُب مني أن أعزف لحن "أوراق الخريف". يا رجل، لقد بدأت أحب هذا الرجل. أيّ إنسان يمكنه أن يشعر نحو امرأة بتلك الطريقة، لهو جدير بأن يُحَب. لذا، كان عليّ أن أفكر بأمرهما، بقوة ذلك الحب بينهما. بما دعاه "الأساليب القديمة". فقلت لنفسي " عليّ أن أعزف تلك القوة، قصةَ الحب تلك، وأجعل تلك الأساليب القديمة تصدر من بُوقي ". إنها لَإساءة إلى ذلك الحب أن يُقيّد بكلمات أغنية. لذا، فقد كتبت لحناً استغرق إنجازه ثلاثة شهور. أردت أن يكون بسيطاً، أنيقاً. من السهل عمل الأشياء المعقدة. فالبساطة هي التحدي الحقيقي. عملت عليه كل يوم حتى بدأ بالانتظام. ثم عملت عليه أكثر وكتبت نوتات لآلة البيانو وال (باس).

وأخيراً، عزفته في أحد الليالي. كان هناك بين الحضور، ليلة الثلاثاء، كالمعتاد. كانت ليلة عزفنا خلالها ألحاناً بطيئة. عدد الحضور في المكان ربما عشرون شخصاً، ولا أحد يصغي بانتباه شديد إلى العزف. كان يجلس هناك، هادئاً، يستمع بانتباه كعادته دائماً، حين قلت عبر مكبّر الصوت " سأعزف لحناً ألّفته من أجل صديق لي. واسم اللحن : فرنتشيسكا ". راقبته وأنا أقول ذلك. كان يحدّق بزجاجته من البيرة، لكن لحظة نطقت باسم فرنتشيسكا، رفع رأسه ببطء ناظراً إليّ، مشّط شعره الرمادي الطويل نحو الخلف بكلتا يديه، أشعل سيجارة (كَمِل)، وتلك العينان الزرقاوان نظرتا مباشرة إلي.
جعلتُ بُوقي يصوّت كما لم يفعل من قبل. جعلته يبكي لأجل كل الأميال والسنوات التي فرقتهما عن بعضهما. كان ثمة تشبيه لحنيّ صغير في بداية اللحن، طريقة للفظ اسمها موسيقياً : فران... تشيس... كا.
حين انتهيت، نهض كُليّاً بجانب طاولته، ابتسم، أومأ برأسه شاكراً، سدّد فاتورته، وغادر. رحت بعد ذلك أعزف اللحن كلما أتى. أطَّرَ صورةً لبرج قديم مسقوف، وأعطاها لي لتأليفيَ اللحن. إنها معلّقة هناك كما ترى. لم يخبرني أبداً أين التقطها، لكنها ذُيِّلت بـ "جسر روزمان" تماماً تحت توقيعه.

في ليلة يوم ثلاثاء، منذ سبع أو ربما ثماني سنوات، لم أره حاضراً. وفي الأسبوع التالي لم يأت أيضاً. ففكرت ربما يكون مريضاً أو ثمة ما يعيقه. انتابني القلق، ذهبت إلى الميناء، سألت عنه في تلك الأنحاء. لم يكن أحد يدري شيئاً عنه. أخيراً، اتجهت بقارب إلى الجزيرة حيث كان يقيم. كان كوخاً قديماً، كوخاً حقاً، منصوباً قرب الماء.

وفيما كنت أُنقّب في الأرجاء، يجيء أحد من الجيرة ويسألني ماذا أفعل. فأخبره، فيقول لي لقد مات منذ حوالي عشرة أيام. تألمت يا رجل عند سماعي ذلك، ولمّا أزل. لقد أحببت ذلك الإنسان كثيراً. كان ثمة شيء ما في ذلك القِط.. شيء ما! لديّ إحساس بأن هناك أشياء عرفها لم نعرفها نحن الباقين.
سألت ذلك الجار عن الكلب. فلم يعرف عنه شيئاً. قال إنه لا يعرف كينكايد أيضاً. اتصلت بالجهة المسؤولة عن الحيوانات الضالّة وتأكدت تماماً من أن (هاي وي Highway) لديهم. ذهبت وأخرجته من هناك، وأعطيته لابن أخي. آخر مرة رأيته فيها، كان هو والولد في حالة وئام تام، فشعرت بالرضا لذلك.
ومهما يكن، فذلك هو ما عرفته.
بعد ما اكتشفت ما حصل لكينكايد بوقت قصير ، صار الخدر ينتاب ذراعي اليسرى حينما أعزف لأكثر من عشرين دقيقة. شيء له علاقة بمشاكل عمودي الفقري، ولذلك

لم أعد أعزف .
لكن، أنا مسكون يا رجل، بتلك القصة التي أخبرني بها عنه وعن تلك المرأة . لذلك، في كل ليلة ثلاثاء، أُخرِج بوقي وأعزف ذلك اللحن الذي ألّفتُه لأجله. أعزفه هنا لنفسي. ولسبب ما، وفيما أنا أعزف، أنظر دائماً إلى تلك الصورة التي أعطانيها . شيء ما فيها، لا أعلم ما هو، لكني لا أستطيع أن أُبعد عينيّ عنها وأنا أعزف اللحن .
فقط أقف هنا، عند المغيب، جاعلاً البوق كله يبكي، وأنا أعزف ذلك اللحن لرجل سُمِّيَ روبرت كينكايد، وامرأة دعاها فرنتشيسكا .

*** النهـــــــاية ***

كلمة المترجم :

لقد جلّت الرواية التباين بين حُبّ يتأتّى بالمعاشرة الزوجية، فيغدو مع مرور الأيام علاقة مودة تسودها مشاعر المحبة والاحترام، وبين حب ينشأ عند الوهلة الأولى للقاء رجل وامرأة جرّاء انجذاب أثيري بين روحيهما، واستشفاف رؤىً وميولٍ مشتركة فيما بينهما، فتتأجج المشاعر، لتفضي في ظرف سانح – إذا لم يكن رباط الزوجية متاحاً – إلى اللقاء الجسدي، بِنيّة مسبقة، أو بغير سابق نيّة .

لابدّ من أن يحزن القارئ للمعاناة النفسية الشديدة التي كابدتها فرنتشيسكا في اتخاذ القرار – إما بالرحيل مع حبيبها روبرت، وإما بالبقاء مع زوجها وولديها . إنها إشكالية ملازمة للحياة الإنسانية منذ القدم.. الصراع بين الرغبة والواجب

إن النفس البشرية مهما كانت قوية إزاء كبح أهوائها المنافية للشرائع والأعراف؛ فإنها في حال من الأحوال، يمكن أن يعتريها الضعف، فلا تسلم من الزلل إلا إن كان إيمانها قوياً بالثواب والعقاب الإلهيّيَن، إذ إن النفس حتى وهي مسلّحة بذاك الإيمان ، فهي غير معصومة كلّيّاً عن الزلل، ما لم تحرص على النأيّ بذاتها عمّا يمكن أن يؤدي إلى السقوط .